

# ألحان السماء

محمود السعدني



# أحان السماء

تأليف  
محمود السعدني



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيبث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: نورا خالد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٩٥٧ ٦

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٩.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٦.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.  
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود السعدني.

## المحتويات

|    |                                            |
|----|--------------------------------------------|
| ٧  | مقدمة الكتاب                               |
| ٩  | في البدء كانت الكلمة!                      |
| ١٣ | صوت الشعب                                  |
| ١٧ | مدرسة الشيخ علي                            |
| ٢٣ | الصيفي أبو القُراء!                        |
| ٢٧ | التلاوة على الركبتين                       |
| ٣١ | حكاية الثلاثة الكبار                       |
| ٣٧ | من الشيخة أم محمد إلى الشيخة كريمة العدلية |
| ٤١ | عودة الشيخ                                 |
| ٤٥ | صوتُ عموم المسلمين                         |
| ٤٩ | الأستاذ والفنان والتابع!                   |
| ٥٣ | وأجبروا الشيخ على الغناء                   |
| ٥٧ | مأساة الشيخ عمران                          |
| ٦٣ | العبقري الأول والعبقري الأخير              |
| ٦٧ | مأساة الشيخ عنتر                           |
| ٧٣ | التفاح والتين الشوكي!                      |
| ٧٧ | رسالة                                      |



## مقدمة الكتاب

### بقلم: فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي

استمع فضيلة الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي إلى فصول هذا الكتاب، قرأها عليه واحد من مريديه، فأبدى إعجابه بما جاء فيه، وأثنى على كاتبه ودعا له بالتوفيق والسداد. ولما طلب منه مريدوه أن يكتب مقدمة للكتاب، رحب على الفور، وكتب هذه الكلمات الطيبات.

«ما أحسن ما سمعتُ، وما أروع ما دُعيتُ إليه، وما أروع استجابتي له!»  
فالكاتب القدير الأستاذ محمود السعدني، الذي طوّف بأدبه وفكره ما طوّف وأثرى المكتبة الأدبية والسياسية بما خلف، أهل لأن يجعل الله لدينه نصيباً من أدبه، وحظاً من قلمه.

فهنيئاً له حين يُتوج رحلته القلمية بهذا الشرف العالي، الذي عاش فيه مع كتاب الله، وبدأه بأول مرحلة فيه، وهي الصوت الذي نطق بعد الأذن التي استمعت، وأشاعت أنغام الجلال في آذان الخلق جميعاً.

ولقد كان الناس يحسبونه في أقل منازل الدين واليقين؛ لأنهم يرون في غيرهم أعلام علماء وفحول مُعلّمين مُعلّمين.

وقد ارتضى هؤلاء الكبار، أن يكون حظهم من المجتمع في هذه المكانة، وارتضوا أن تكون مكانتهم عند الله؛ لأنهم الصدى الحلو من كلام الله. وحسبهم أنهم كانوا جنوداً لكلمة الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

فهؤلاء من جنود الحفظ، وقادة التحفيظ، ومنهم استقبل العلماء ما فسّروا، وأخذ الفقهاء عنهم ما اجتهدوا، وأخذ الأدباء منهم ما دبّجوا به عيون المقال، وفصل الخطاب. فهنيئاً لهم أولاً، وهنيئاً للكاتب الذي رفع اعتبارهم فوق كل اعتبار، وجعل كل متكلم في الدين لا يتكلم إلا بحجة ما أخذ عنهم، وبانضباط ما تلقى منهم؛ فهم الذين صحّحوا لكل لسان كيف يتكلم بالقرآن.

إن هذه الكتيبة من القراء الذين شدّوا بألحان السماء، وبتأليف الله لهم، لم يكونوا مكررين لا أداء، ولا أصواتاً، ولا لحنًا، بل لكل واحدٍ منهم نغمٌ يخدم النص.

فمنهم قمة الأحكام كالحصري مثلاً، ومنهم قمة الصوت الجميل كعبد الباسط، ومنهم قمة الفن الرفيع الرائع، المستحيل الجميل، كمصطفى إسماعيل، ومنهم جامع كل ذلك في اثتلافٍ لا يرتفع فيه فن على فن كالشيخ محمد رفعت؛ فهو كل هؤلاء جميعاً، ويزيد أنه عالم بما يقرأ، تستطيع أن تفهمه بمجرد نطقه للكلمة. ولحبيه — في عصره — حكاياتٌ عن هذا الفهم الرائع لما كان يقرأ في مسجد فاضل بدرب الجماميز.

فرحمهم الله جميعاً، ورضي عنهم، وجعل منهم أسوةً للجيل القادم، لا يستنكفون أن يكونوا كما تسميهم العامة «فقهاء» وهم في الحق «فقهاء» بمفهوم الخاصة.

ورعى الله الأستاذ السعدني وجعل ما قدّم فيهم تاجاً لما قدّم في سواهم؛ فسواهم خدَم كلام الناس، وهؤلاء خدَموا كلام الله.

بارك الله فيك يا محمود، وبارك منك، لتكون أسوةً لإخوانك، فرسان القلم، ليجعلوا من كتاباتهم جانباً لله، فذلك خيرٌ وأبقى.

محمد متولي الشعراوي

## في البدء كانت الكلمة!

محمود السعدني

هذا الكتاب — ألحان السماء — صدر أول مرة في أول أبريل عام ١٩٥٩ م ... وقبل موعد صدوره بعدة أيام كان العبد لله يقيم في سجن القلعة متهمًا بالشيوعية! ولم تُتَحِ الفرصة للعبد لله للاطلاع على الكتاب أو الاحتفاظ بنسخة من نسخته؛ لأن جميع النسخ اختفت من الأسواق خلال شهر رمضان ... ولم أتمكن من الحصول على نسخة من الكتاب إلا بعد ذلك بسنوات ومن فوق سور الأربكية ... وحتى هذه النسخة ضاعت مني بعد ذلك، واضطُرْتُ إلى نشر بيان ناشدْتُ فيه القُراء الذين يحتفظون بنسخة من الكتاب أن يرسلوها لي شاكرين.

وتفضّل أحد القُراء فأرسل لي نسخة من الكتاب، واكتشفتُ بعد النظرة الأولى أنها فقدت بعض صفحاتها، وأن الزمن أكل الرسوم والنقوش التي كانت على الغلاف. وبعد فترة تلقّيتُ صورة من الكتاب أرسلها لي مشكورًا الشيخ أحمد الرزيقي ... القارئ المعروف ... ولم أفكر في إعادة طبع الكتاب إلا بعد رحلة السياحة الطويلة التي قمتُ بها مرغماً خارج مصر، وبعد أن اكتشفتُ خلال الطواف بأنحاء العالم العربي، كم هو ثمين هذا الكنز الذي وهبنا الله إياه، متمثلاً في هذا الفن العظيم، فن قراءة القرآن الكريم.

واكتشفتُ خارج الحدود السر وراء الطلب الذي تقدّم به الملك محمد الخامس إلى السلطات الفرنسية وهو في منفاه الإجباري للسماح له بالاحتفاظ بعدة أسطوانات للشيخ عبد الباسط عبد الصمد.

واكتشفتُ السر وراء استدعاء الشيخ الشعشاعي وزميله الشيخ شعيشع إلى بغداد لإحياء ليالي مأتم الملك غازي ملك العراق.

واكتشفتُ السر وراء إصرار عثمان حيدر آباد أحد أمراء الهند العظام وأحد أثرياء العالم في عصره على دعوة شيخ القراء الشيخ محمد رفعت لإحياء ليالي شهر رمضان في قصره العظيم ومقابل أي كمية من الذهب يطلبها الشيخ رفعت.

وبعد عودتي إلى مصر هالني مدى الفرق الرهيب بين مشايخ الأربعينيات والخمسينيات والستينيات وبين ما نسمعه الآن، خصوصاً السادة المشايخ الذين احترقوا تلاوة القرآن في جهاز التليفزيون ... أصوات ملساء وأخرى صلعاء، وأغلبها بلا نبض ولا إحساس.

ما الذي جرى؟ وكيف تغيرت الأحوال؟ ولماذا انحدر المستوى على هذا النحو الذي لم يكن يتوقعه أحد على الإطلاق؟ أين لجان الاستماع بأجهزة الإعلام؟ أين الأساتذة الكبار الذين كانوا حُجة في علم القراءات، كالشيخ محمد الصيفي والشيخ محمد الفيومي والشيخ منصور الشامي الدمنهوري؟ أين أصحاب الحناجر الذهبية التي كانت تُحلق بأفئدة الناس إلى السموات العلّاء، كالشيخ منصور بدار والشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبد الباسط عبد الصمد؟ أين المشايخ العظام الذين قدّموا ألواناً من فن التلاوة كتب لها الخلود مع الأيام؟ أين الشيخ الشعشاعي والشيخ عبد العظيم زاهر والشيخ أحمد سليمان السعدني والشيخ محمد صديق المنشاوي والشيخ محمود علي البنا والشيخ فريد السنديوني والشيخ محمود عبد الحكم؟

وهناك أكذوبةٌ ضخمة تتردّد هنا وهناك اختلقتها وأشاعتها جماعات الإرهاب، التي ترفع شعاراتٍ دينية، أكذوبة تقول: إن الصوت الجميل يتعارض مع القراءة الشرعية ... وهي أكذوبةٌ بلا جدال؛ لأن سيد الخلق جميعاً ونبي الإسلام ورسول الله إلى الناس جميعاً سيدنا محمد بن عبد الله كان له رأيٌ يختلف عن رأي جماعات الإرهاب.

فقد عزم الرسول الكريم على تعليق جرسٍ كبير فوق سطح أول مسجد أقيم في الإسلام ... وبينما الصحابة منهمكون في رفع الجرس فوق سطح المسجد؛ إذ جاء أحد الصحابة وقال للرسول: يا رسول الله، لقد رأيتُ فيما يرى النائم أنني أصعد على سطح هذا المسجد

وأناذي المسلمين للصلاة بدعاء، وراح الرجل يردد الدعاء الذي رآه في المنام «الله أكبر ... الله أكبر ... أشهد أن لا إله إلا الله ... أشهد أن لا إله إلا الله ... أشهد أن محمداً رسول الله ... حي على الصلاة ... حي على الفلاح ... حي على الفلاح ... الله أكبر ... الله أكبر ... لا إله إلا الله ...»

وبدت السعادة على وجه الرسول الكريم وقال للرجل ... نعم ما رأيت. وتهللت أسارير الرجل وتوجّه قاصداً الصعود على سطح المسجد ليؤذن للصلاة. ولكن الرسول الكريم استوقف الرجل بحزم وقال له: دع بلاً يؤذن، إنه أندى منك صوتاً.

هذا قانون من قوانين الإسلام وضعه الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه، قانون يمنع الجمع بين وظيفتين في وقت واحد؛ فمن حق هذا المسلم أن يحلم وهو ماجور على حلمه الجميل، ولكن يؤذن؟ فلا وألف لا؛ لأن رفع الأذان وظيفة سيدنا بلال، ولسبب بسيط، هو أنه أندى صوتاً، وبعبارة أخرى صوته أجمل وأمتع! وإذا كان هذا هو حكم رسول الله ونبي الإسلام، فمن هو هذا الذي من حقه أن يحكم بعد ذلك؟

كان الشيخ علي محمود — يرحمه الله — يرفع الأذان من فوق مئذنة سيدنا الحسين، فيجتمع عشرات الألوف في الميدان للاستماع إلى أذان الشيخ، واليوم نستمتع إلى عشرات الميكرفونات عبر الشوارع والساحات فنتمنى أن نهاجر بعيداً عن هذه الأصوات. كان الشيخ علي محمود ينفذ وصية رسول الله، وهؤلاء السادة من أصحاب الأصوات القبيحة يتحدّون رسول الله ويخالفون وصيته.

وكان لا بد من إصدار هذه الطبعة الجديدة من الكتاب. وهناك قضية أخرى؛ فقد كنت أعلم وأنا أشرع في كتابة سطور هذا الكتاب أنني أخوض في حقل ألغام. والسبب أن السادة المشاهير من قراء القرآن صاروا كنوادي كرة القدم، لكل منهم معجبون ومتعصبون وأنصار. ولقد حدث ما توقعته بالتمام والكمال، عندما هاجمت الشيخ الطبلاوي لجهله وضيق أفقه وعدم اعترافه بأحد غيره من القراء، اتصل بالحاج إبراهيم نافع، وهمس له بأنه يخشى أن يكون وراء الهجوم عليه القارئ الدكتور نعنع، وعندما وصفتُ الشيخ نعنع بما يغضبه ويرضي الله اتصل بالصديق اللواء عبد الحليم موسى، وهمس له بأنه يخشى أن يكون وراء الهجوم عليه الشيخ الطبلاوي. أما الشيخ الطبلاوي فقد لقننته درساً لا أعتقد أنه سينساه، عندما اتصل بي تليفونياً معاتباً فأغرقته في بحر من الأدب الرفيع، ومن بحر الشاعر الكبير الحطيئة، ومن بحر أجداده وأحفاده، وإلى آخر العنقود الشاعر عبد الحميد الديب. أما الدكتور نعنع فلم أظفر به بعد، وأرجو أن يلهمه الله فيتصل بي

شفاهة أو تحريراً، وأرجو أن يُقويني الله لكي أجعله يفهم أنه ليس كل الخيل يصلح للرهان!

كما انهالت على العبد لله عشرات الخطابات من القراء، كل قارئ يريد من العبد لله أن يضع قارئه المفضل على رأس قائمة القراء.

وسأكتفي في هذا الكتاب بعرض نموذج واحد من هذه الخطابات واخترتُه لعدة أسباب من بينها أن صاحب الخطاب يعيش في البرازيل واسمه يحيى عاصم، كما أنه يبدو من سطره سميع قديم ومن أنصار الشيخ كامل يوسف البهتيمي. وهو غاضب لأنني حشرتُ الشيخ الشعشاعي والشيخ الحصري بين عمالقة القراء، كما أنه زعلان لأنني تجاهلتُ الشيخة سكيئة حسن، وهي في رأيه السيدة الأولى، وربما السيدة الوحيدة التي نقشتُ اسمها على صفحات فن تلاوة القرآن الكريم.

على العموم. هذا هو كتابي: «أَلحان السماء» بين أيديكم وأرجو أن أكون قد أديتُ الأمانة، وكما ينبغي أن تكون، وأرجو أن يكون للعبد لله أجر المجتهد، وفي الإسلام للمجتهد المخطئ أجر واحد وللمجتهد المصيب أجران، وألف رحمة ونور على المشايخ الكبار الذين سبقونا إلى رحاب الله. ونسأل الله التوفيق للمشايخ الذين على قيد الحياة.

محمود السعدني

## صوت الشعب

الأصوات كالوجوه لكل منها سحنة خاصة! هناك أصوات تنفر منها.  
وأصواتٌ تُدخل السرور عليك، وأصواتٌ ترتاح إليها، وأصوات تجعلك — بالرغم منك —  
— تعشقها وتحبها.

والأصوات كالمعادن بعضها كالصفيح، وبعضها كالفضة وبعضها له بريق الذهب،  
وبعضها له رنينه، ويندر جدًا ... أن يكون الصوت من ذهب.

من هذه الأصوات الذهبية صوت الشيخ مصطفى إسماعيل، وفي الماضي القريب كان  
صوت الشيخ منصور بدار، الذي اعتزل القراءة وأثر الراحة في قريته.

ولكن هناك من بين الأصوات التي سمعناها — وما أكثرها — صوت يقف فريدًا  
غريبًا باهرًا، وسر غرابته — في رأي العبد لله — أنه استمد طبيعته من جذور الأرض، إنه  
صوت المرحوم الشيخ محمد رفعت ... صوت الشعب ... فمن أصوات الشحّاذين والمدّاحين  
والندّابين والباعّة الجائلين، استمد المرحوم الشيخ محمد رفعت صوته، فخرج مشحونًا  
بالأمل والألم مرتعشًا بالخوف والقلق عنيّفًا ... عنف المعارك التي خاضها الشعب، عريضًا  
... عرض الحياة التي يتمناها ... ولذلك كُتِبَ لهذا الصوت البقاء، وسيظل إحدى علامات  
الطريق في تاريخنا الفني الطويل.

ولقد نشأ الشيخ محمد رفعت في حي شعبي ومات فيه، وفي حي البغالة والسيدة  
زينب اصطخبت بأسماع الفتى الضرير الصغير أصوات كثيرة، استطاع أن يخزن منها  
نخيرةً ضخمة، واستطاع بعد ذلك أن يمضغها ويهضمها وأن يستخرج منها في النهاية  
صوته الخالد الذي نفذ إلى أعماق الناس فأبكاهم وأشجاهم ... وهزّهم هزًّا ... ولا يهزُّ  
أعماق الناس كالحقيقة والصدق. ولقد كان الشيخ صادقًا في انفعاله، وكانت طبقات صوته

ونغماتُ حقيقيَّةٍ مأخوذة من واقع الناس، ومن فنونهم، من أسواقهم وندواتهم وأفراحهم البسيطة ... وأحزانهم العنيفة ... ومعاركهم القاسية مع الحياة.

ولكن الفنان العملاق رفعت لم يقنع بدراسة فنون البسطاء، بل راح ينهل من الفن الموسيقي الرفيع، وعندما مات خلف ثروة كبيرة من أسطوانات باخ وموزارت وبيتهوفن وليست، وعدة أسطوانات أخرى للعازف الكبير باجانيني، وكان رفعت يقضي أمسياتٍ طويلة مع هؤلاء العباقرة الأفذاذ يستمع إلى النغم الرائع الذي أبدعوه فظل مخلصًا على الزمان.

ومن الدراسة الشاقة الطويلة للنغم الرائع وفنون الشعب، استطاع رفعت أن يبقى في عالم الفنون راسخًا كالهرم خالداً كرسالات الأنبياء.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن يقرن ظهور الشيخ محمد رفعت بظهور عبقرى من نفس الطراز هو الشيخ سيد درويش، لم تكن مصادفة؛ فقد كان الشعب قد اكتمل وعيه ونموه وترجم هذا الوعي وهذا النمو بثورة ١٩١٩م، وفي خلال الثورة كان سعد زغلول يمثل روح الشعب الصلبة القوية المصممة على السير في الطريق الذي بدأه حتى النهاية، وراح سيد درويش يلحن صيحات الشعب السياسية والاجتماعية، وراح رفعت يلحن حياة الشعب الروحية.

ليست هذه مبالغة؛ فسيد درويش ورفعت كانا زعيمين من طراز سعد، وكما التقت طبقات الأمة وطوائفها حول سعد، وكما طربت لسيد درويش، تراها — وهنا العجب — تلتف حول رفعت بطوائفها، ولم يحدث قط قبل رفعت أن استمع أقباط مصر إلى قارئ، بل إن استماعهم إليه كان بشغف وبحب وبإعجاب شديد.

بل إن عظمة رفعت امتدت إلى خارج هذه الحدود؛ فقصة الضابط الكندي الذي انتهز فرصة وجوده في مصر خلال الحرب العالمية الثانية، وطلب من مدير الإذاعة أن يُسهّل له مقابلة رفعت، وعندما التقى به بكى الضابط الكندي، وقال: لم أكن أعلم أنه أعشى، والآن عرفتُ سر الألم العظيم الذي يفيض به صوته العبقري.

وحكاياتُ أخرى كالأساطير شاعت عن الشيخ وذاعت ... وقصة الثورة التي أعلنها المستمعون عندما نشب خلاف بين رفعت ومحطة الإذاعة، حتى إن بعضهم هدد بعدم الاستماع إلى الراديو بالمرة، وهدد البعض الآخر بعدم دفع الضريبة إذا لم تخضع الإذاعة لرغبات رفعت العظيم، وقصة أبخل وأغنى رجل في العالم عثمان حيدر آباد الذي طلب من العبقري الشيخ أن يحضر إلى الهند مع «حاشيته»، وبأجر مائة جنيه في اليوم الواحد، مع

التكفل بنفقات الرحلة والإقامة من جيب الثري البخيل، وتقول الحكاية أو الأسطورة: إن رفعت رفض عرض الرجل وفضل إحياء ليالي الفقراء بالمجان.

والعبد لله شخصياً لا يعرف إذا كانت هذه القصص حقيقية أم من نسج الخيال. ولكنها على أية حال ترينا كيف أصبح رفعت بطلاً شعبياً مثل عنتره وأبي زيد الهلالي ينسج الناس حوله قصصاً خرافية، ولكنها في الوقت نفسه تترجم مشاعر الناس البسطاء نحو الرجل العظيم، وعندما كان رفعت حياً يقرأ في جامع فاضل باشا لم يكن أحد من المستمعين يتصايح أو يرفع عقيرته بعبارات الطرب والانسجام. كما يفعل المستمعون اليوم مع المشاهير من القراء ... كان فن رفعت الأصيل يُجبرهم على الصمت ويُقيدهم في أماكنهم، يحتملون أحياناً فوق طاقتهم من ضيق المكان، ومن حرارة الجو ليستمتعوا بالصوت العبقري العظيم.

هذه الحقيقة البسيطة تكفي وحدها — دون حاجة للأساطير — للدلالة على عبقرية صوته الغريب.

وحقيقة أخرى أبلغ دلالة؛ فالغالبية العظمى من الأشرطة التي تُذاع اليوم للشيخ محمد رفعت لم يكن للإذاعة فضل فيها، بل الفضل كله يرجع إلى عشاق الشيخ الذين لم يكونوا على صلة صداقة أو معرفة بالشيخ، بل دفعهم الحب الصادق والاعتراف بعبقرية صاحب الصوت إلى تسجيل كل سور القرآن دونما هدف إلا هدف الاحتفاظ بهذا التراث الخالد العظيم، فنرى أحد البشوات هو زكريا مهران يحتفظ بتسجيلات الشيخ دون أن يكون قد رأى الشيخ مرة في حياته.

وهناك تاجرٌ وطني كبير، وموظفٌ سابق، وعمدةٌ من عُمَد الأرياف يحتفظون بنفس الشيء؛ لأنهم أدركوا بفطرتهم الفنية السليمة أن هذا الشيء يجب الاحتفاظ به ... لأنه ثمين. دليل الحكايات الخيالية والحكايات التي حدثت فعلاً دليلٌ خطير خلاصته أن هذا الشعب الذي ظلمناه طويلاً ولا يزال بعض أدبائنا الكبار وفنانينا الكبار — الكبار سنّاً — يهتمونه بفساد الذوق وعدم التقدير وعدم الإحساس الفني. شعبٌ أصيل. أصيل في وعيه، أصيل في تذوقه وتقديره للفن ... على شرط أن يكون فناً حقيقياً يستحق التقدير.

وقد يقول قائل: ربما كان التقدير الذي حظي به رفعت راجعاً إلى حب الناس وتقديرهم للدين، وهو قولٌ غير صحيح ... فقد كان مع رفعت مجموعة من القراء لا يمكن حصرها ... ولا تجاهلها، وكان من بينهم عباقرة لمعوا فجأة ثم طواهم النسيان، ولم يبقَ من بين الجموع الحاشدة إلا رفعت وحده خير شاهد على أن الفن الأصيل يبقى ... وما عداه يزول!

وحتى بعد موت رفعت وبعد أن ضاع أخلد أعماله ... وهو صوته، وبقيت عدة أشرطة قديمة سيئة التسجيل بعضها يُسيء إلى رفعت أكثر مما يُحسن إليه، رغم هذا كله. فقد أثبت الشعب أنه وفيّ وفاءً منقطع النظر.

مثلاً ... وهذه حقيقة وليست خُرافة، أقسم أحد كبار الجزائريين أن جسد العبقري لن يُدفن إلا في المقبرة التي أعدها له، وكان قد أعد في صمت وبلا ضجيج مقبرة عظيمة تليق بعظمة الراحل الكريم، وأصرّ الجزار الطيب على أن يحمل نعش الشيخ بنفسه إلى مثواه الأخير.

ووفد على مآتم الشيخ آلاف من مختلف أنحاء البلاد لم تكن لهم صلات بالشيخ إلا صلة التقدير والإعجاب.

ولكن مفتي سوريا عندما سمع الخبر قال ولحيته مبللة بالدموع: رحم الله شبابه فقد جدد شباب الإسلام، ولا يزال مجهولون كثيرون يزورون قبر الشيخ في صمت ليقرءوا الفاتحة على روح الفقيد. وإلى عهد قريب كانت في العاصمة وأنحاء أخرى متفرقة من البلاد مقاهٍ تُخصص لمستمعي رفعت قاعاتٍ بداخلها ليستمتعوا بما تبقى من فن الشيخ في هدوء.

وقد حدث أن قطعت محطة الإذاعة إرسالها أكثر من مرة لتذيع على الناس بشري العثور على شريط جديد للشيخ. ويذاع الشريط. ويكون حديث الناس في كل مكان. وسيظل رفعت حديث الأجيال كفنانٍ عملاقٍ إلى زمنٍ بعيد.

وسيأتي يوم تصبح فيه للفنون الرفيعة الخالدة جامعة، ويكون صوت محمد رفعت على رأس هذه الفنون والسبب — كما أوضحنا من قبل — هو أن كل فن خالد جميل يجب أن يستمد وجوده من حياة الناس، من فنون الشعب.

ولقد كتبتُ مرةً سابقة عن رفعت فقلتُ إن سبب خلوده يرجع إلى أن صوته كان من السماء، والآن أعترف بخطئي وأعود فأقول: إن سر خلود الشيخ يرجع لسبب واحد، أن صوته العبقري نبع من آمال الناس وآلامهم، من أسواقهم وحواريهم، ومن أفراحهم الساذجة وأحزانهم العنيفة، بعبارة أبسط ... لقد كان صوته من جذور الأرض، كان صوته هو صوت الشعب!

## مدرسة الشيخ علي

كان لسعد زغلول قارئ خاص هو الشيخ محمود البربري، وكان سعد زغلول لا يرتاح لسماع أحد سواه، وكان الشيخ البربري يُلقَّب نفسه بـ «مقرئ سعد»، ولعله كان القارئ الوحيد الذي لم يكن يلحن في تلاوته، كان يقرأ القرآن وكأنه يتحدث، وكان يصف تلاوته بأنها القراءة الشرعية الصحيحة.

وكان مغرمًا بالإعادة ... ولذلك كان يظل أحيانًا ساعة كاملة لا يقرأ سوى آياتٍ قليلة. في عام ١٩١٩ م ... اشترك قراء القرآن في المعركة.

كان الشيخ منصور بدَّار يتلو القرآن كل مساء في الجامع الأزهر ... والشيخ محمود البربري يقضي أيامًا بائسة في السجن؛ فقد اعتقله الإنجليز بتهمة أنه صديق لسعد زغلول، وأنه كان يؤدي له خدمات وطنية، وكان الإنجليز على حق؛ فقد كان الشيخ البربري يُخفي كل مساء وهو خارج من بيت الأمة آلاف المنشورات تحت رداءه الديني الفضفاض، وذات مساء اكتشف الإنجليز السر عندما كان الشيخ البربري ... يجتاز بوابة «بيت الأمة»، وقد نسي إحكام إغلاق جُبتِه وانهاالت من داخلها مئات المنشورات على الأرض.

وفي السجن كان الشيخ البربري يجمع حوله كل المسجونين بتهمة الوطنية ... ويظل الساعات الطوال يقرأ لهم بصوته الشجي حتى أقلق ذلك خاطر الإنجليز فحبسوه في زنزانية منفردة ... ولكن هذا لم يمنع الشيخ البربري من مواصلة القراءة وهو داخل الزنزانية، وبصوت أعلى ليتمكن كلٌّ من في السجن من سماعه، وظل الشيخ البربري يقرأ في ذكرى سعد كل عام حتى مات، وريح في حياته كثيرًا ولم يترك خلفه شيئًا. وعندما نُفي سعد إلى مالطة قدَّم الرجل نفسه لسلطات الاحتلال طالبًا نفيه مع الزعيم ليقراً له القرآن هناك، ورفضت سلطات الاحتلال عرض الشيخ البربري، ولم تكتفِ بهذا، بل راحت تطارده في رزقه، وكان المأثم الذي يسهر فيه تحيطه دائمًا مجموعة من جواسيس الإنجليز،

واستغل الوطنيون الفرصة فكانوا يستدعون الشيخ البربري — عدو الإنجليز — دائماً في مآتمهم، بل كانوا يقيمون أحياناً مآتم وهمية ليسهر فيها الشيخ نكاية في الإنجليز ... ومات الشيخ البربري بعد أن عمّر طويلاً ... وكان على رأس المشيعين لجنازته مكرم عبيد ... فقد كان تلميذاً له في أيام مضت ... أيام الثورة ... وقليلون يعرفون أن مكرم عبيد كان يقرأ القرآن وبطريقة الشيخ محمود البربري، ولم يكن للشيخ تلاميذ سوى رجلين أحدهما مكرم عبيد، والثاني كان يقرأ القرآن في جامع الخازندار، وبنفس طريقة الشيخ البربري ... واسمه الشيخ سعيد نور.

قصة كفاح الفتى الريفي الصغير الذي هاجر من قريته شعشاع بالمنوفية إلى القاهرة عام ١٩١٥م، ليقرأ القرآن فيها بصوت قوي جميل قصة حافلة تستحق التسجيل، ومنذ ذلك العام، عام ١٩١٥م، والشيخ الشعشاعي يقرأ باستمرار، وهو يصعد السلم درجة درجة ... حتى بلغ في النهاية آخر درجات السلم وحوله هالة ضخمة من المجد، وفي يمينه ثروة طائلة عبارة عن مجموعة من الأسطوانات بصوته القوي، ومجموعة أخرى من الأسطوانات بأصوات العباقرة الذين عاصروه.

بدأ الشيخ الشعشاعي مع أحمد ندا وعلي محمود ومحمد رفعت ومحمد الصيفي، وبدأ مثلهم بأجر خمسين قرشاً في الليلة الواحدة، وشهد خلال تاريخه الطويل أياماً حافلة، قرأ في مآتم ثروت وعدلي وسعد زغلول ومحمد محمود وأحمد ماهر والنقراشي، واشترك مع ثلاثة غيره في إحياء ليالي مآتم الملك فؤاد، وطار من مصر إلى العراق ليقرأ في مآتم الملكة الأم، وبدعوة من الحكومة العراقية.

واشترك مع الشيخ محمد رفعت في آخر ليلة للشيخ رفعت قبل أن يدهمه المرض الخطير الذي قضى عليه، وأُتيحت له فرصة لم تتح لغيره من القراء؛ فقد أدّى فريضة الحج، وقرأ القرآن بعد صلاة المغرب في الحرم النبوي، وكان المسجد النبوي يضيق بمئات الألوف من المصلين من كافة أنحاء العالم الإسلامي.

وقد أذاع الشيخ من جميع محطات الإذاعة العربية في العالم، وهو يقرأ سورة الكهف أسبوعياً — كل يوم جمعة — في مسجد السيدة زينب، وهناك كثيرون من القراء الجدد الذين يتعصبون للشيخ ويُفضلون صوته على جميع الأصوات، وكان الشيخ الشعشاعي يتساوى في المرتبة والأجر مع الشيخ رفعت، والشيخ علي محمود، وكان أجراً ٢٥ جنيه في الساعة، و١٠٠ جنيه في الليلة، ومع ذلك ابتعد الشيخ الشعشاعي عن محطة الإذاعة المصرية فترة؛

لأن أحد موظفيها وجّه إليه عبارةً اعتبرها الشيخ إهانةً له، والشيخ الشعشاعي عاش طويلاً، وعلى الرغم من ذلك ظل محتفظاً بصوته العميق القوي حتى مات، وكان باستطاعته — وبدون مكبر صوت — أن يقرأ في عدة ألوف من الناس لساعاتٍ طويلة دون أن يُحس إرهاقاً.

وللشيخ الشعشاعي لونٌ خاص في التلاوة؛ فهو لم يقلّد أحداً من القراء الذين سبقوه، كما أنه لم يظهر حتى الآن من حاول تقليد صوت الشيخ، والسبب هو أن الطريقة التي يقرأ بها الشيخ تحتاج إلى صوتٍ قوي فتّي.

وما أندر الأصواتِ القويّة في دولة القراء! ولقد سار ابنه الشيخ إبراهيم على طريق والده، وقرأ بأسلوبه عندما حلّ محلّه في قراءة سورة الكهف يوم الجمعة في مسجد السيدة زينب، ولكن الابن رغم تفوقه واجتهاده لم يصل إلى الذروة التي وصل إليها والده العظيم. ولقد حاول البعض التفريق بين الشيخ رفعت والشيخ الشعشاعي ولكن المحاولات كلها فشلت، وعندما سألتُه بعد موت رفعت عن رأيه في صوت الشيخ، كان جوابه: صوت رفعت نادر وكلنا في خدمة القرآن ... وكان بسيطاً في معيشته، متواضعاً في سلوكه، وكانت أمنيته أن يقرأ مرةً أخرى في الحرم النبوي، وحوله مئات الألوف من أبناء العالم الإسلامي.

واحدٌ فقط في مصر يستطيع أن يزعم بحقّ أنه تلميذ الشيخ علي محمود؛ فقد عاصره مدةً طويلة من الزمان كأحد أفراد بطانته، ذلك الرجل هو الشيخ طه الفشني.

اتصل الشيخ طه الفشني بالشيخ علي محمود، والأخير في قمة مجده، وكان الشيخ طه شاباً صغيراً يقرأ القرآن أحياناً، ويُشدّ التواشيح أحياناً أخرى، ثم لم يلبث أن بهره صوت الشيخ علي محمود وطريقته الفذة في الأداء، وما يتمتع به من صوت عميق رهيب يهز وجدان الناس.

وطاف الشيخ طه مع الشيخ علي مناطق مصر كلها، وسهر معه الليالي الطوال، وعاش معه حياته المجيدة الحافلة، وفي ليلة من ليالي عام ١٩٣٩م، قدّم الشيخ علي تلميذه الأول للجمهور، فحل محله في ليلة خالدة في حياة الشيخ طه، واستقبله الناس بالتقدير ... فقد كان الشيخ طه أقدر الناس على استيعاب طريقة أستاذه؛ ومن ثمّ أقدرهم أيضاً على أن يسد الفراغ الكبير الذي سيُخلّفه الشيخ علي محمود.

وفي عام ١٩٤٢م، أصبح للشيخ طه فرقةٌ يرأسها، ولع نجمه سريعاً فأذاع من محطة القاهرة، ومن محطات الإذاعات الخارجية، ولم يكتفِ بالتواشيح ... بل ظل يقرأ القرآن

شأنه في ذلك شأن الشيخ علي، وارتفع أجره بعد ذلك إلى عشرة جنيهات في الإذاعة، وثلاثين جنيهًا في الليلة الواحدة، وعندما مات الشيخ علي قفز أجره إلى مائة جنيه في الليلة؛ إذ لم يُعد أحدٌ هناك سواه.

والشيخ طه الفشنى كان في الثانية والأربعين من عمره يعيش في بيته بمصر الجديدة، وله بيتٌ آخر هجره منذ عدة أعوام في الحارة التي كان يسكن فيها الشيخ علي محمود، والشيخ محمد سلامة.

وأعظم الأصوات بالنسبة إليه هو صوت المرحوم الصيفي والشيخ محمد رفعت، ويصفه بأنه فلتةٌ لن يوجد بمثلها الزمان.

وهو من عشاق صوت الشيخ مصطفى إسماعيل ... ومن أشد الناس إعجابًا بطريقة الشيخ الصيفي في الأداء ... حدث مرة أن كان الشيخ طه يُنشد التواشيح في ليلة مولد بديروط ... وعندما جاء عند مقطع «استقر به المقام»، أقسم أحد العُمد الجالسين بالطلاق أن يظل الشيخ يردّد هذا المقطع حتى الصباح.

وظل الشيخ الفشنى يردّد المقطع حتى بزغ نور الفجر، ثم غادر الصوان على عجل واستقل أول قطار إلى القاهرة، ولكن والحق يُقال كان الشيخ الفشنى هو عمدة فن التواشيح والإنشاد الديني بعد الشيخ علي محمود، ولكن حظه في التلاوة كان متوسطًا، وعندما بدأ قلّد طريقة الشيخ مصطفى إسماعيل، ولكنه عدل عنها بعد ذلك وأصبح له طابعه الخاص، وبعد موت الشيخ طه الفشنى بسنواتٍ طويلة، منحه الرئيس حسني مبارك وسامًا تقديرًا لدوره المجيد في خدمة القرآن الكريم.

والغريب أنه في حياة الشيخ طه الفشنى ... لمع في مجال الإنشاد الديني بعض المشايخ الذين أنعشوا هذا الفن وأثروه، منهم الشيخ عبد السميع بيومي، والشيخ محمد الفيومي، أحد أفراد بطانة الشيخ علي محمود، والشيخ محمد الطوخي، وهو علم من أعلام هذا الفن على الرغم من أنه يعيش بنصف كُلى، ثم جاء الشيخ النقشبندى — يرحمه الله — وقد بهر الناس بأدائه الرائع وبصوته الواضح القادر على الأداء في كل المقامات، ثم جاء نصر الدين طوبار ...

وقد تأثر نصر الدين بطريقة دراويش الطرق الصوفية، وكان الفضل في ظهوره وانتشاره للفنان زكريا الحجاوي، لم يبقَ من الرائحة الحلوة القديمة إلا الشيخ محمد عمران، وبوفاته نستطيع أن نقول إن دولة الإنشاد الديني والتواشيح صارت إلى زوال! وأغرب شيء أن موت الشيخ محمد عمران آخر العنقود في مدرسة الشيخ علي لم تُثر إليه أية جريدة أو مجلة، ولم يُذع خبر وفاته في أية إذاعة، حتى صديقه الحميم جلال

معوض سمع الخبر من العبد لله بعد شهر من وفاته، والعبد لله عرف الخبر بالصدفة من قارئ صديق بعد ثلاثة أسابيع من رحيله، وهو دليلٌ أكيد على أن العملة الرديئة تطرُد العملة الصحيحة من السوق، وعلى أن الزمن الحاضر فقد موازينه ...

والآن أصبح أي شيء مثل كل شيء، وحل مخبأ التليفزيون الذي يطلقون عليه «مسجد التليفزيون»، من باب الدلع، محل جامع السلطان حسن، والأزهر الشريف، وجامع السلطان أبو العلا، وجامع السيدة زينب، وجامع الرفاعي، وجامع شيخ العرب أحمد البدوي وجامع المرسى أبو العباس.

والآن ... لا أحد يدري إلى أين نسير! بعد أن أصبحت التلاوة بالواسطة، والإنشاد الديني بالحلواني، وانعدمت الفروق بين المشايخ الذين يسرحون على المقابر، والمشايخ الذين يسرحون في أروقة التليفزيون، و... ليس لها من دون الله كاشفة، والأمر لله من قبلُ ومن بعدُ!



## الصيفي أبو القراء!

ثلاثة فقط من القراء ظهوروا مع بداية العصر الذهبي لدولة التلاوة ... المشايخ: محمد سلامة، ومحمد الصيفي، وعبد الفتاح الشعشاعي، وكان الشيخ الصيفي أولهم؛ إذ ذاع صيته بعد الشيخ أحمد ندا والشيخ علي محمود، وفي نفس الوقت الذي ذاع فيه اسم الشيخ محمد رفعت. وقد نشأ الشيخ الصيفي في حارة واحدة مع الشيخ ندا، والشيخ سلامة، والشيخ علي محمود ... وسكن الحارة قارئاً آخر هو الشيخ طه الفشني ... وعندما لمع اسم الشيخ الصيفي، كان الشيخ ندا يتقاضى جنيهاً كاملاً في كل ليلة، كان ذلك عام ١٩١٥م، والحرب العظمى ناشبة، وموجة الإفلاس تدمر بيوت تجار القطن وملاك الأرض.

وكان الشيخ محمد رفعت يتقاضى في ذلك الوقت خمسين قرشاً عن كل ليلة، وكذلك الشيخ الصيفي، وعندما ارتفع أجر الشيخ ندا ارتفع أجر كل القراء ... وأصبح الشيخ الصيفي يتقاضى عشرة جنيهات عن كل ليلة في عام ١٩٣٧م، وكان واحداً من أربعة قراء أحيوا ليالي مآتم الزعيم سعد زغلول، والملك فؤاد.

وكان هو القارئ الوحيد الذي رفض أن يقرأ في قصر فاروق في أشهر رمضان الخالية، وذهب إليه ناظر الخاصة الملكية يستفسر منه عن سبب الرفض. وأجاب الشيخ الصيفي بأن صحته لا تساعد.

وقال ناظر الخاصة: ولكن مولانا يُحب أن يسمعك، فردَّ عليه الصيفي في هدوء: ولكنني أقرأ في الراديو، ويستطيع مولانا أن يسمعني جيداً، وعندما مات الشيخ علي محمود وكان قارئ المسجد الحسيني، أصبح الشيخ الصيفي قارئاً للمسجد، وكان للشيخ الصيفي رأي في القراء، ولكنه كان يحتفظ به لنفسه، ولا يعلنه على الناس.

قال لي ذات مرة: إن أعظم الأصوات التي سمعتها في حياته هو صوت الشيخ محمد القهاوي والشيخ منصور بدار، ويأتي بعدهما الشيخ مصطفى إسماعيل، سألته: ومحمد

رفعت؟! فقال على الفور: صوت محمد رفعت لم يكن كبقية الأصوات تجري عليه أحكام الناس، لقد كان هبة السماء ... والشيخ الصيفي كان صديقاً للمرحوم الشيخ محمد رفعت حتى مات، وكان هو الوحيد من بين القراء الذي لازمه أربعة أيام كاملة قبل أن يموت. وربح الشيخ الصيفي كثيراً وأنفق كل ما ربحه على أبنائه، وعلى أصدقائه، وله ابن عمل مخرجاً في السينما هو الأستاذ حسن الصيفي، وعاش ومات في نفس الحارة التي نشأ فيها مع الشيخ ندا، والشيخ علي محمود، والشيخ محمد سلامة، وفي حجرة الاستقبال في منزله صور كل هؤلاء الأعلام.

ومعها أيضاً صورة المرحوم الشيخ سيد درويش، وقال لي الشيخ الصيفي وهو يتأمل في الصورة جيداً: هذا الرجل — يقصد سيد درويش — أحدث انقلاباً في فن الموسيقى ... وهذا الرجل — يقصد الشيخ علي محمود — أحدث انقلاباً آخر في فن الموسحات، وقد مات الشيخ الصيفي في السبعين من عمره ... وقبل ذلك اعتزل إحياء الليالي، واكتفى بقراءة سورة الكهف في مسجد الإمام الحسين، ولقبه في دولة التلاوة أبو القراء!

### الشيخ القهاوي

سألت الشيخ رفعت مرة قبل وفاته: أي واحد من القراء تُحب سماعه أنت يا شيخ القراء؟ وابتسم الشيخ رفعت — رحمه الله — وأجاب ونفس الابتسامة على شفتيه: لا داعي لهذا الإحراج، إنهم جميعاً مجيدون. قلت: إذن أيهم أفضل من بين الذين انتقلوا إلى رحمة الله؟ وهنا اعتدل الشيخ محمد رفعت وراح يهزُّ رأسه يميناً ويساراً، وكأنما قد هز السؤال حنينه إلى تلك الأيام البعيدة الجميلة ... أيام زمان.

قال الشيخ رفعت: كلهم كانوا مقتدرين على الأداء، ولكلٍّ منهم لون، فلا تستطيع أن تفضّل واحداً على الآخر، ولكن كان أجملهم صوتاً الشيخ محمد القهاوي، وكان صوته من أجمل الأصوات وأرقّها وأعذبها وأشدّها حنيناً وحناناً وضراعة.

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها اسم الشيخ القهاوي؛ فليست له شهرة الشيخ أحمد ندا، أو الشيخ علي محمود، وكانت شهادة الشيخ رفعت وحدها كافية لمعرفة مدى ما كان يتمتع به من جمال الصوت، ولقد ظهر القهاوي في نفس الفترة التي ظهر فيها الشيخ ندا، والشيخ رفعت، والشيخ علي محمود، وغيرهم من الفرسان، ولكن الليالي الطويلة التي سهرها قضت عليه قبل فوات الأوان.

لقد كان — رحمه الله — فناناً، وكان يعشق الليل، ولم يره أحد في الشارع قبل الغروب، وربح كثيراً وأنفق ما ربحه في مجالس الأصدقاء ... وكان من أصدقاء الشاعر حافظ إبراهيم، والشيخ البشري، والدكتور محبوب ثابت، وكان القراء يرفضون الاشتراك معه في ليلة واحدة؛ فقد كان الجمهور يرفض أن يستمع لأحد بعد الشيخ القهاوي، حدث مرة في حي السلخانة أن قامت معركة في مأتم كان يقرأ فيه الشيخ القهاوي، مات فيها أربعة، ونقلت عربات الإسعاف أكثر من عشرة إلى المستشفيات، وكان السبب هو الشيخ القهاوي، وسجل محضر البوليس أن المعركة نشبت لأن أحد الفريقين المتنازعين قال كلاماً اعتبره الفريق الآخر ذمّاً في الشيخ.

ومات الرجل وهو في قمة مجده، وكان وقتئذٍ في التاسعة والأربعين، ولم يترك خلفه أسطوانة واحدة تسجل صوته، وكان أداؤه غريباً كصوته يبدأ بطبقة عالية، وبإلقاء سريع، ثم ينتهي إلى عذوبة وطبقة خافتة مع مدّ طويل عند خاتمة الآية، ومن الذين قلّدوا طريقته الشيخ محمود علي البنا، مع أن الشيخ البنا لم تُتَح له فرصة الاستماع إلى صوت الشيخ القهاوي.

وقال لي الشيخ الصيفي، وهو يتحدث عن الشيخ القهاوي — رحمه الله: إن كل الأصوات التي سمعتها والتي ستسمعها من خشب، وصوته وحده كان من الذهب، ولكن صاحبه انصهر في بوتقة الليالي ... ومات قبل الأوان.

## صوت من الغابة

كان في جامع الخازندار رجل أسمر اللون يقرأ القرآن بطريقة غريبة كلها شجن تستدر الدموع من العيون التي لم تعرف طعم الدموع قط، هذا الرجل اسمه الشيخ سعيد نور. وبالرغم من أن الرجل لم يقرأ في الإذاعة إلا مرة واحدة، إلا أنه يتمتع بشهرة تفوق شهرة بعض قراء الإذاعة، وسر شهرة الشيخ سعيد أنه يقرأ القرآن بطريقة تختلف عن الطريقة المعروفة ... طريقة القراءات.

وبهذه الطريقة نفسها كان يقرأ قارئ آخر من قبل هو الشيخ محمود البربري، وتسري بين العامة شائعة أن هذه الطريقة هي وحدها الطريقة الشرعية التي يرضاها المحافظون، المهم أن الطريقة التي يقرأ بها الشيخ سعيد نور طريقة عجيبة تثير في نفوس الناس عواطف شتى ... من الطرب والخشوع والإيمان، وأيضاً تستدر من عيونهم الدموع الحزينة، والسبب الذي من أجله لم يقرأ الشيخ سعيد في الإذاعة، أن صوته — رغم جماله —

يكاد لا يصلح للميكروفون، وهناك أصواتٌ غاية في الرقة والجمال ولكنها أمام الميكروفون تختلف عن طبيعتها.

ويبدو أنه من بين هذه الأصوات صوت الشيخ سعيد نور، والمحطة الوحيدة التي تذيع له هي محطة المملكة العربية السعودية، وشهر رمضان هو أنسب الشهور لسماعها جيدًا قبل السحور بالنسبة لسكان مصر، ولم يُعرف عن الشيخ سعيد أنه أبدًا حدد أجرًا له، وهو يتناول الأجر الذي يدفعه صاحب الليلة دون نقاش، وتتعصّب لصوت الشيخ محافظات بأكملها، وعلى رأسها جميعًا محافظة المنوفية، ولعل السبب يرجع إلى أن أغلب سكان حي شبرا — حي الشيخ سعيد — من قرى المنوفية، وقد قرأ الشيخ مع المشايخ الكبار قبل الحرب الأخيرة، قرأ مع الشيخ علي محمود، والشيخ محمد رفعت، وبدأ هو الآخر مثلهم بخمسين قرشًا في الليلة، ويستمتع الشيخ سعيد لصوت الشيخ رفعت، ويفضّله على كل الأصوات.

ويعتبر الشيخ الشعشاعي هو أعظم القراء بعد رفعت، وكذلك مصطفى إسماعيل، وأبو العينين شعيشع، وقد كان الرجل الأسمر يعيش عيشة بسيطة في شبرا، أما هوايته الوحيدة فكانت سماع الأسطوانات القليلة الباقية للشيخ محمود البربري! ولكن يبدو أن الشيخ سعيد لم يقتنع بأن صوته لا يصلح للإذاعة؛ ولذلك هاجر من مصر واستقر في الكويت في فترة الستينيات، وسجلت إذاعة الكويت القرآن الكريم بصوت الشيخ سعيد، وتذيع له مرة كل أسبوع في فترة الفجر، وقضى الشيخ سعيد بقية حياته في الكويت حتى اختاره الله إلى جواره، ولكنه ترك ثروةً روحيةً غالية بتسجيلاته للقرآن الكريم، ولكن لسوء الحظ ... كانت أشرطته ضمن الأشرطة التي اختفت من أرشيف الإذاعة خلال فترة احتلال الأشاوس ... وحكومة الكويت تتهم جيش الأشاوس وحكومة الأشاوس تنفي اتهامات الكويت، وأين ذهبَت الأشرطة؟! العلم عند علام الغيوب!

## التلاوة على الركبّتين

اسمه الشيخ محمد سلامة، ومات وهو فوق الثمانين بسنوات، عاصر الفترة الذهبية لعصر التلاوة أيام الشيخ علي محمود وغيره، ونال من الشهرة والمجد ما لم ينلّه قارئٌ من قبل حتى ولا الشيخ أحمد ندا، وذاع صيته عن غير طريق الإذاعة؛ فقد ظل أعوامًا طويلة يؤمن بأن إذاعة القرآن حرام؛ ولذلك حُرّم من الثراء الذي ناله أمثاله، ولكنه عاد في عام ١٩٤٨م، وأذاع من محطة القاهرة، غير أن الزمن الطويل الذي عاشه كان قد أثّر في صحته وفي صوته، فاضطّر إلى القراءة أمام الميكروفون عدة سنوات.

وقد بدأ الشيخ سلامة يقرأ في عام ١٩١٠م، وكان يسكن مع المشايخ أحمد ندا، والصيفي، وعلي محمود في حارة واحدة في حي العباسية، وكان الشيخ أحمد ندا أسبقهم في الظهور، ثم تبعه الشيخ سلامة على الفور ولع نجمه قبل أن يظهر الشيخ الشعشاعي بسنوات، وسافر إلى فلسطين بعد الحرب العظمى الأولى، وقضى فيها أعوامًا ثم عاد إلى مصر من جديد ... وحاولت إذاعة فلسطين تسجيل عدة أشرطة له، ولكن محاولاتها ذهبت عبثًا؛ فقد كان الشيخ يعتقد — كما قلتُ — أن إذاعة القرآن حرام، ويُعتبر الشيخ سلامة صاحب مدرسة مستقلة في الأداء، كما أنه كان يتمتع بصوتٍ مميز ليس له نظير بين أصوات القُراء. وظل يعيش في نفس الحارة التي نشأ فيها مع الشيخ ندا وعلي محمود والصيفي، الحارة الضيقة المسدودة بالعباسية، التي هجرها الجميع ما عدا الشيخ الصيفي والشيخ سلامة. ولعل الشيخ سلامة هو القارئ الوحيد الذي كان يقرأ جالسًا على ركبتيه كأنه في حالة ركوع أثناء الصلاة، وكان إذا انتقل من طبقة القرار إلى طبقة الجواب هبّ واقفًا على ركبته في حركة متوافقة مع الطبقة التي ارتفع إليها.

وكان الشيخ سلامة لا يُخفي استنكاره للطريقة التي يقرأ بها الشيخ مصطفى إسماعيل. وكان يؤمن بأن قراءة القرآن تحتاج إلى صوتٍ قوي ووقور، أما الصوت «الحوّ»

فليس مستحباً في التلاوة، وكان هذا هو رأيه أيضاً في صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، أما الصوت المفضل لديه فكان صوت الشيخ الصيفي، وكان من رأيه أن صوت الشيخ زاهر «مش بطل!»

وأخر مرة استمعتُ فيها إلى الشيخ سلامة كانت في مأتم والدته الحاج سيد مخيم بالجيزة، وحدث أثناء التلاوة أن انصرف بعض الجالسین، وهنا قطع الشيخ تلاوته، وأعطى الحاضرين في السرايق درساً في آداب الاستماع إلى القرآن الكريم، وعندما مات الشيخ محمد سلامة، كان في حكم المجهول بالنسبة للأجيال الجديدة، وهي الأجيال التي كان يُطلق عليها الشيخ لقب أجيال عبد الحليم حافظ!

استطاع رجل واحد في دولة القراء أن يظل في منطقته لا يبرحها، ومع ذلك فقد وصل إلى الشهرة وإلى المجد واستطاع أن يفرض اسمه على كل لسان ... ذلك هو الشيخ منصور الشامي الدمنهوري وفي دولة القراء رجلان لم يبرحا منطقتهما أيضاً، هما الشيخ صديق المنشاوي والشيخ محمد مجد، ولكنهما لم يبلغا مكانة الشيخ منصور الشامي من حيث الشهرة والثراء.

نشأ الشيخ منصور وعاش في دمنهور، وذاع صيته من المدينة الصغيرة وما حولها، ولم يلبث أن غادرها وهو في العشرين من عمره إلى الإسكندرية مسقط رأس سيد درويش

...

ذاع صيت الشيخ وأصبح علماً على دولة القراء هناك، واتصل في شبابه بالمشايخ محمد رفعت، وعلي محمود، ومنصور بدّار ... وأعجب الشيخ محمد رفعت بصوته وشهد له بالتفوق والنبوغ، وقرأ معه في ليلة واحدة في احتفال كبير بالإسكندرية، ومنذ تلك الليلة ومنصور الشامي الدمنهوري يجري على طريق الشهرة وهو يلهث من الإعياء؛ فقد كان يكفي أن يقرأ الشيخ رفعت مع قارئٍ صغير حتى يصبح اسم الأخير على كل لسان.

وفي عام ١٩٤١م، عُيّن الشيخ منصور قارئاً لمسجد سيدي أبي العباس المرسى بالإسكندرية ... وكانت الصحراء المحيطة بالمدينة تشهد لونها من الصراع الرهيب بين جيوش هتلر الزاحفة والجيش البريطاني الذي انطلق في الصحراء العريضة نحو الإسكندرية. ومرت لحظات حرجة وخطيرة على المدينة والجنود الألمان على بعد خمسة عشر ميلاً منها ... ومدافعهم الثقيلة البعيدة المدى تضرب أطراف المدينة ليل نهار ... وغادر الإنجليز المدينة، ومن ورائهم سكانها جميعاً، ولكن الشيخ منصور رفض أن يغادرها وأصر على البقاء بجوار سيدي المرسى ليقرأ داخله القرآن. وانهمز رومل وانتحر هتلر. وبقي الشيخ منصور يقرأ في مسجد سيدي أبي العباس.

وفي عام ١٩٤٥م، قرأ الشيخ منصور لأول مرة في الإذاعة وبأجر خمسة جنيهاً، ثم لم يلبث أن ارتفع أجره إلى عشرة ثم خمسة عشر جنيهاً عن كل إذاعة، وكان يذيع في نفس الوقت من محطات لندن وسوريا والشرق الأدنى وباكستان، وقد توفى الشيخ منصور إلى رحمة الله منذ زمنٍ طويل، ولكن صوته القوي وطريقته الفريدة في الأداء لا يزال صداها يرنُّ في أسماع الزمان، ومع أنه لم يُشتهر كثيراً ولم يحقّق من احتراف التلاوة ما حقّقه غيره من القراء، إلا أنه كان على عكس زميله الشيخ سلامة قانعاً بما وصل إليه، وكان دائماً يردد مقولة تعبّر عن رضائه بما وصل إليه: الصوت هبة من عند الله، والهبة هي نوع من الرزق، والله سبحانه وتعالى قسم الأرزاق بين الناس، وفُضِّل بعضهم على بعض. وكان يقول: إن الشيخ رفعت رزقه كبير، ورزقي متوسط، وهناك آخرون رزقهم قليل، وعلى كل مرزوق أن يرضى برزقه!

وكان شديد الإعجاب بصوت الشيخ مصطفى إسماعيل، ويُعبّر عن إعجابه بقوله: إن الله سبحانه أعطاه حلاوة في الصوت وإبداعاً في الأسلوب، وإنه عطية السماء لدولة التلاوة، ولم يكن له نظير في الماضي ولن يكون له مثيل في المستقبل! ولعل الشيخ منصور الشامي الدمنهوري من القراء القلائل الذين كان يحرص الأقباط على سماعهم؛ فقد كانت طريقته في الأداء تقترب من أداء ترتيل المنشدين في الكنائس، رحم الله الشيخ منصور الشامي الدمنهوري إحدى القمم الشامخة في دولة التلاوة!

في مآتم المغفور له محمود فهمي النقراشي، جلس كبار رجال الدولة وقتئذٍ يستمعون في خشوع إلى آيات الذكر الحكيم، يرتلها رجلٌ في الخامسة والأربعين من عمره ترتيلاً حسناً، وفي صوته نبرة غريبة تحرك الشعور وتهز الوجدان ... وسأل رئيس الحكومة وقتئذٍ عن اسم هذا القارئ، فقالوا له إنه عبد الرحمن الدروي، وقال رئيس الوزراء إبراهيم عبد الهادي ولماذا لا يقرأ في الإذاعة؟ ومن ذلك الحين ظل الشيخ عبد الرحمن يقرأ في إذاعة القاهرة، وبدأ بأجر خمسة جنيهاً عن كل إذاعة، ثم ارتفع أجره إلى عشرة جنيهاً، ثم خمسة عشر جنيهاً، وقفز أجره في الليلة الواحدة إلى ثلاثين جنيهاً، ثم إلى خمسين جنيهاً، وعاش الشيخ الدروي متنقلاً بين القاهرة وقريته الصغيرة دروة في المنوفية، وقليلون يعلمون أن الشيخ الدروي كان يعمل مأذوناً بقريته، وأن كل الزيجات في منطقته تتم على يديه؛ لأن الأهالي في تلك المنطقة يتفاءلون بالشيخ الدروي، ويعتقدون أن السعادة الزوجية تصاحب زبائنه.

والشيخ الدروي يتمتع بصوت يصفه خبراء الأصوات بأنه متوسط، ولكنه رغم هذا يتمتع «بقرار» سليم ونبرة غريبة تهز النفوس ... ويُفضل الشيخ الدروي صوت الشيخ محمد رفعت وصوت الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي من القراء الذين سبقوه، ويصف صوت الشيخ الشعشاعي بأنه أعظم الأصوات.

وفي أغلب الليالي كان الشيخ الدروي يسهر في الليالي التي يقيمها أهل منطقته في المنوفية، وهو لا يتقاضى أجرًا من أهل القرية على الإطلاق، كما أنه لا يتقاضى منهم أجرًا على قيامه بتحرير عقود الزواج، وهو يقول: إن النبرة الغربية التي يتميز بها صوته تتميز بها كذلك جميع أهل القرية. وهي نبرة شجيّة حزينة، ربما علقت بأصوات أهل القرية من الواقع الحزين الذي تعيش فيه القرية الصغيرة الواقعة على شاطئ الرياح المنوفي الحبيب، وإذا كان الشيخ الدروي قد ذاع صيته بعد وصوله إلى ميكروفون الإذاعة إلا أنه كان يرفض إحياء الليالي في المناطق النائية، ولكنه كان حريصًا على تلبية الدعوات التي تصله من أهالي المنوفية والقليوبية والغربية. كما كان حريصًا على الاشتراك في ليالي مولد السيد أحمد البدوي.

وكان يتردد أحيانًا على مسجد السيدة نفيسة ليصلي العشاء في ركن منعزل، ولكنه كان يُضطرّ إلى التلاوة إذا تعرّف المصلون عليه. وكان يشعر بسعادة لا مثيل لها وهو يقرأ للناس الطيبين الذين يتصادف وجودهم في المسجد ذلك المساء، وعاش الشيخ الدروي حتى مات وله هواية واحدة هي الاستماع إلى تسجيلات الشيخ علي محمود والشيخ محمد رفعت، وحضور الليالي التي يُحييها الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي. وكان متيمًا بصوت الشيخ عبد العظيم زاهر، ومعجبًا بصوت الشيخ محمود عبد الحكم.

## حكاية الثلاثة الكبار

في دولة التلاوة أصواتٌ لم ترتفع إلى القمة التي ارتفع إليها محمد رفعت، وأحمد ندا، ومصطفى إسماعيل، ولكنها استطاعت أن تدخل التاريخ، وأن تنقش اسمها على جدار الزمن، وعلى رأس هؤلاء ثلاثة من أعظم القراء، كان لكلٍ منهم لونٌ خاص ومذاقٌ مختلف. الشيخ عبد العظيم زاهر والشيخ أحمد سليمان السعدني والشيخ محمد فريد السنديوني؛ أما الشيخ عبد العظيم زاهر فقد كان نسيجَ وحده لم يقلد أحداً، ومن الصعب تقليده، وصوته علامة من علامات رمضان كما صوت الشيخ محمد رفعت، وقد حفظ القرآن، ثم انطلق يقرأ في المآتم وفي الحفلات الدينية، واشتهر بسرعة البرق وفرض نفسه على دولة التلاوة كواحد من نجومها، ولكن طريقته الخشنة في التعامل مع الناس والحياة، ربما هي السبب في تعثره وعدم وصوله إلى القمة، ولكن عدم وصوله إلى القمة لا ينفي أنه كان صاحبَ صوتٍ من أجمل الأصوات التي سمعناها في العصر الحديث، وصاحب طريقة في الأداء ليس لها شبيه على طول الزمن.

كان صاحب صوتٍ مقتدر على الأداء الممتاز في جميع المقامات، وكما كان مقتدرًا في طبقة الجواب وجواب الجواب، كان مقتدرًا أيضًا في طبقة القرار، وهي ميزةٌ كبرى لم يظفر بها إلا عددٌ قليل من القراء، على رأسهم الشيخ محمد رفعت، وبالرغم من شهرته العريضة وطريقته الفذة، إلا أن أحداً من القراء الجدد لم يجرؤ على تقليده، رغم أن كثيرين قلدوا الشيخ محمد رفعت وعلى رأسهم الدكتور هيبة والشيخ أبو العينين شعيشع، ولكن عبد العظيم زاهر لم يقترب من منطقته أحد حتى هذه اللحظة.

يُذكر أن أحد أعيان حي «المدبح» طلبه للقراءة في إحدى الليالي فطلب ثلاثين جنيهاً أجراً عن الليلة، وأمهله مدة ساعتين للحضور إليه ودفع المبلغ مقدماً، وبشرط إحضار سيارة لتوصيله إلى المآتم وإعادته إلى البيت آخر الليل، وكان مبلغ الثلاثين جنيهاً في ذلك

الزمان مبلغًا جسيمًا؛ حيث كان فدان الأرض في المنوفية بثلاثين جنيهًا، وحاول أصحاب الليلة الاستعانة بقارئ آخر ولكنهم فشِلوا، فاضطُّروا مكرهين إلى الاستعانة بالشيخ عبد العظيم زاهر ونفَّذوا جميع شروطه، منحوه المبلغ مقدَّمًا واصطحبوه معهم في سيارة إلى السرادق، وبعد أن أحيَا الليلة، وكان صاحب الحفل سميحًا كبيرًا عاصر مشايخ كبارًا مثل الشيخ أحمد ندا والشيخ القهاوي والشيخ الفيشاوي، تقدم الرجل السميع إلى الشيخ زاهر وصافحه بشدة ونقده ثلاثين جنيهًا أخرى، وتقدَّم أحد أبناء الرجل ولفت نظر أبيه إلى أن الشيخ تقاضى أجره مُقدَّمًا، فأجاب الرجل في هدوء: أعلم ذلك، ولكن الشيخ زاهر يستحق ضعف المبلغ الذي اتفق عليه، إن صوته من نسمات الجنة.

وقرأ الشيخ زاهر في سرادق عابدين داخل القصر الملكي في ليالي رمضان المباركة، وعندما قرأ في إمارة عجمان أصدرت طابع بريد يحمل صورته، وظل الشيخ زاهر يقرأ مع الكبار وينافسهم حتى توفاه الله.

ومنذ فترة وبعد وفاته بوقتٍ طويل منحه الرئيس مبارك وسامًا في الاحتفال الرسمي بليلة القدر، رحم الله الشيخ عبد العظيم زاهر الذي كان صوته من عجائب دولة التلاوة، ومن أعذب الأصوات التي استمعنا إليها في الحياة!

## مجرم حرب!

لعلها المرة الأولى والأخيرة التي تعرَّضت فيها تقارير رجال المخابرات البريطانية خلال الحرب لقارئٍ متهمٍ إياه بأنه يتعامل مع الأعداء؛ ففي بداية الحرب الأخيرة قالت مخابرات الحلفاء إن الشيخ أحمد سليمان السعدني القارئ المعروف يُذيع كل مساء من محطة برلين العربية، وقالت التقارير أيضًا إن إذاعة الأخبار باللغة العربية بعد التلاوة مباشرة، وقالت التقارير أيضًا: إن عددًا كبيرًا من الناس يستمع إلى إذاعة برلين ليتمكَّن من سماع الشيخ السعدني، وسمع مصطفى النحاس باشا — وكان رئيسًا للوزراء — بالقصة، فأرسل في استدعاء الشيخ، وعندما دخل عليه مكتبه رفض النحاس أن يصافحه، قائلاً له بلهجته المعروفة: لا ... ده مش كلام ... أنت راجل بتتعامل مع المحور.

وشرح الشيخ السعدني للنحاس كل شيء، واقتنع النحاس، فمد يده وصافحه وقال له: الآن اطمأن قلبي.

وأصل الحكاية أن بعثة من الإذاعة الألمانية وصلت إلى مصر في عام ١٩٣٧م، لتسجيل بعض الأغاني والبرامج العربية، لإذاعتها في راديو برلين، وقضت البعثة عامًا سجلت فيه كل

شيء، ثم رأت أن تُسجل شيئاً من القرآن، فلم يتسع وقتها لأكثر من عشرة تسجيلات كلها للشيخ السعدني، ونشبت حرب في عام ١٩٣٩م، واستغلت برلين الفرصة فراحت تُذيع شرائط الشيخ السعدني كل مساء من محطتها العربية. ومن هنا جاء اتهام المخابرات الإنجليزية للشيخ السعدني بأنه من عملاء المحور.

وقد بدأ الشيخ السعدني تلاوة القرآن الكريم عام ١٩٢٥م، وبأجر قدره خمسون قرشاً في الليلة، وفي مدينة منيا القمح مسقط رأسه. وفي عام ١٩٣٠م، نزح إلى القاهرة؛ حيث أصبح صديقاً للشيخ رفعت والشيخ علي محمود، وفي عام ١٩٣٥م أصبح قارئاً لمسجد سيدي الشعراي، وبدأ نجمه يلمع خلال الحرب من محطة برلين العربية ومحطة القاهرة.

والشيخ السعدني كان فناناً يحب الاستماع إلى صوت الشيخ محمد رفعت والشيخ علي محمود، وكان أديباً أيضاً، وله كتاب في خدمة القرآن عرض فيه لطريقة بعض قُدامى القراء، وشرح فيه مذاهبهم في التلاوة وطريقتهم في الأداء.

وعندما كان الشيخ السعدني في الثانية عشرة من عمره، كانت الثورة المصرية عام ١٩١٩م تجتاح أرض مصر، وكانت المراكز الكبرى تقيم في كل يوم مأتماً لشهائها، وكان مركز منيا القمح يقيم في كل يوم أكثر من مأتم يقرأ فيه أكثر من قارئ شهير.

وكان الشيخ السعدني يقطع كل مساء عشرة كيلومترات من قريته إلى منيا القمح ليستمع إلى المشاهير الذين جاءوا ليرتلوا القرآن، وكان يجلس الساعات الطوال على الأرض خلف السرادق ليسمع بعيداً عن العيون فلم يكن دخول السرادق مباحاً لأمثاله من الصبية الصغار، وذات مساء بكى الشيخ السعدني وهو يستمع إلى الشيخ البربري، وودَّ لو يستطيع أن يصفحه ويقبل يده، ولم تتحقق أمنيته قط، وحتى عندما أصبح الشيخ السعدني رجلاً وجاء إلى القاهرة، كان الشيخ البربري قد انتقل إلى رحمة الله.

### فلسطين ... وداعاً!

ظهر الشيخ فريد السنديوني فجأة ثم اختفى فجأة، وظل عشر سنوات طوالاً واسمُه يُدوَّى كالطبل في أنحاء البلاد العربية، وكان ظهوره في بداية عام ١٩٣٨م، وفي قريته سنديون بالمنوفية؛ ومن ثم ذاع صيته في أنحاء المنوفية ثم في المديرية المجاورة، ثم أصبح الشيخ فريد علماً في مدينة القاهرة.

وفي عام ١٩٣٩م، أذاع الشيخ لأول مرة من إذاعة القاهرة، وفي عام ١٩٤١م كانت الصحراء تشهد حرباً عنيفة، وجيوش المحور تمسح رمال الصحراء الغربية بجيوش الحلفاء، وأصبح لإذاعة الشرق الأدنى، كان مقرها فلسطين، أهمية بالغة، فاستدعت السلطات الإنجليزية الشيخ فريد ليقرأ فيها بصورة دائمة، وسافر الشيخ فريد إلى فلسطين بمرتب مائتي جنيه في الشهر، وفي عام ١٩٤٥م قفز هذا الرقم إلى خمسمائة.

وفي بداية عام ١٩٤٧م، وكان قد لاح في الأفق أن الأرض المقدسة ستخضب بالدماء ... استغنت إذاعة الشرق الأدنى عن خدمات الشيخ، فغادرها عائداً إلى القاهرة، وقيل يومئذ إن خلافاً قد نشب بين الشيخ وبين مدير الإذاعة الإنجليزي حول تصرفات غريبة لم يرض عنها مدير الإذاعة، وراح الشيخ يذيع من محطة القاهرة فترة قصيرة، ثم لم يلبث أن عاد إلى فلسطين مرة أخرى، وكان ذلك في نهاية ١٩٤٧م، واتخذ من مدينة يافا مقراً له.

ولكن القاهرة التي علّمته وأنضجته أنكرته عندما عاد، فقد ذهب إلى الإذاعة في عام ١٩٤٩م، ليقرأ من راديو القاهرة، ولكن المسؤولين رأوا عرضه على لجنة رسمية لامتحان! امتحان قارئ مشهور في العالم العربي احترف القراءة عشرين عاماً، ثم بعد ذلك كله امتحان! وسكت الشيخ السنديوني ولم يتكلم، وفي يوم الامتحان ذهب إلى الإذاعة ودخل الاستديو، بينما كان في حجرة مجاورة عدة أشخاص أشبه بمُحلفين في انتظار إصدار حكمهم، له ... أو عليه.

وكان بينهم المعمم الذي يفهم سر المهنة، والذي ليس له من موهبة إلا صلة وثيقة بالقصر الملكي الذي كان يحكم البلاد، وأعطيت الإشارة للشيخ السنديوني لكي يقرأ، وبُهِت الجميع عندما ارتفع صوت الشيخ يلعلع بالغناء، ثم خرج صائحاً من الاستديو: ما دام عاوزين امتحان أنا مستعد أمتحن في الغناء، إنما في القراءة مستحيل ... أنا قارئ من عشرين سنة وصوتي بيلعلع من إذاعات العالم! ثم خرج الشيخ من الإذاعة ولم يعد إليها قط ... وقضى عاماً بلا عمل، ثم أراد أن يحتج على هذا الوضع الغريب، وكان احتجاجه فريداً ولانغاً؛ فقد افتتح الشيخ مقهى في شبرا، وجلس الشيخ خلف البنك يعد المارك، ويعد المشاريب للزبائن الكرام، وذات ليلة باردة من ليالي عام ١٩٥٢م، مات الشيخ السنديوني داخل مقهاه.

ولقد كان صوته غريباً، يقطر ألماً وحرزاً ومرارة كحياته التي لم تستمر طويلاً؛ فقد مات الشيخ السنديوني في سن الأربعين! كان صوته يشبه صوت الناي الحزين، صوت مصري عريق، فيه صرخات وأنات وزفرات الفلاحين الذين عاش معهم وتربى بينهم،

وانتهى إليهم آخر الأمر جُثَّة بلا روح؛ فقد أوصى قبل موته بأن يدفنوه على شاطئ الرِّياح في سنديون!

وفي يافا كان بيته ندوة لأهل الفن، وكان أبرز ما فيه حبه الشديد للمعرفة والثقافة وتعلُّقه الشديد بالمتقنين، وفي تلك الندوة كان يسهر الشاعر الكاتب المرحوم عبد الرحمن الخميسي وسامي داود وعميد الإمام وسليم اللوزي، وتردَّد عليها أيضًا عباس محمود العقاد وإبراهيم المازني خلال زيارتهما الخاطفة لفلسطين، وإبراهيم الشنطي صاحب جريدة الدفاع في يافا الذي كان من أصدقائه هو وناصر الدين النشاشيبي، وسعيد التلاوي صاحب الفيحاء في دمشق، وسعيد فريخة صاحب الصياد في بيروت، وعندما مات رثَّته صحف العواصم العربية كلها ما عدا صحف القاهرة؛ فقد نشرت خبر وفاته في سطور.

وفي بداية عام ١٩٤٨م، قبل بدء الحرب الفلسطينية بأشهر قليلة، كان الشيخ يقرأ لآخر مرة له في فلسطين، وفي مدينة القدس وكانت المناسبة وفاة عربي كبير يسكن المدينة التي سقطت فيما بعد في يد إسرائيل، وفي تلك الليلة نشب قتالٌ وحشي بين شباب جمعية الأراجون الإرهابية والشباب العربي، وأُصيب الشيخ يومها في رأسه، فحزم أمتعته في المساء، وعاد إلى القاهرة بقطار الفجر، وبعد أن خمدت النار في فلسطين، ظل الشيخ يحنُّ إلى الأرض المقدسة التي شهدت مجده، فطار من جديد إلى عمَّان، وظل هناك حتى قُدر له أن يقرأ في مأتم الملك عبد الله، ثم سافر إلى سوريا وإلى لبنان وقضى في كُلِّ منهما زمناً. ثم عاد إلى القاهرة ليستقر في حفرة على النيل.



## من الشيخة أم محمد إلى الشيخة كريمة العدلية

بموت السيدة نبوية النحاس في عام ١٩٧٣م، انطوت صفحة رائعة من كتاب فن التلاوة والإنشاد الديني في العصر الحديث؛ فقد كانت السيدة نبوية هي آخر سيدة مصرية تترتل القرآن الكريم في الاحتفالات العامة، وفي المناسبات الدينية، وفي المآتم والأفراح. وكان الاستماع إليها مقصوراً على السيدات، وكان بمسجد الحسين قسم خاص للسيدات يدخلن إليه من باب خاص. وكانت السيدة نبوية هي واحدة من ثلاث سيدات اشتهرن في نفس الوقت؛ السيدة كريمة العدلية والسيدة منيرة عبده ... والسيدة نبوية. أما السيدة كريمة العدلية فهي أشهرهن جميعاً ...

ظهرت في عصر الشيخ علي محمود والشيخ منصور بدّار، ووصل صوتها للعالم العربي كله من خلال الميكروفون أيام الإذاعات الأهلية، وعاشت السيدة كريمة حتى تم تمصير الإذاعة، وظلّت تُذيع القرآن الكريم بصوتها العذب إلى فترة الحرب العالمية الثانية. وكانت هناك قصة حب شديد وعجيب بين كريمة العدلية والشيخ علي محمود، كانت تعشق صوته وطريقته الفذة في الأداء، وكان هو يفضل الاستماع إليها ويفضل صوتها على أصوات بعض القراء، وكثيراً ما كانت تصلي الفجر في الحسين في الركن المخصّص للسيدات لكي تتمكن من سماع صوت الشيخ علي محمود وهو يرفع أذان الفجر بصوته الذي ليس له مثيل. ولم يسبق الشيخة كريمة العدلية واحدة من السيدات اللاتي احترفن ترتيل القرآن وإنشاد المدائح النبوية إلا السيدة أم محمد التي ظهرت في عصر محمد علي، وكان من عاداتها إحياء ليالي شهر رمضان الكريم في حرمك الوالي.

كما كانت تقوم بإحياء ليالي المآتم في قصور قواد الجيش وكبار رجال الدولة. وكانت موضع إعجاب الباشا محمد علي، وحصلت على العديد من الجوائز والهدايا، وأمر محمد علي بسفرها إلى إسطنبول لإحياء ليالي شهر رمضان المعظم في حرمك السلطنة. وماتت الشيخة أم محمد قبل هزيمة محمد علي ومرضه، ودُفنت في مقبرة أنشئت خصيصاً لها في الإمام الشافعي، وجرت مراسم تشييع الجنازة في احتفال عظيم.

ولكن الشيخة منيرة عبده لم تحقق الشهرة التي وصلت إليها كريمة العدلية بالرغم من وصول صوتها إلى العالم العربي عبر ميكروفونات الإذاعات الأهلية المصرية، وعندما قرأت أول مرة في عام ١٩٢٠م، كانت فتاة صغيرة في الثامنة عشرة من عمرها، نحيفة وضعيفة وكفيفة أيضاً، وأحدث ظهورها ضجة كبرى في العالم العربي، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت الشيخة منيرة نداً للمشايخ الكبار، وذاع صيتها خارج مصر، وتهافت عليها جميع إذاعات مصر الأهلية. وفي عام ١٩٢٥م، عرض عليها أحد التجار الأثرياء التوانسة إحياء شهر رمضان في قصره بصفاقس وبأجر ألف جنيه، وهو مبلغ يساوي بحساب النقد هذه الأيام مائة ألف جنيه.

ولكن الفتاة الصغيرة الكفيفة لم تستطع تحقيق أمنية الرجل الثري الطيب، فلم يكن من الرجل الطيب إلا الحضور إلى القاهرة وقضاء شهر رمضان في مصر، وعندما أنشئت الإذاعة الرسمية في القاهرة، كانت الشيخة منيرة في طليعة الذين رتلوا القرآن من خلال موجاتها، وكانت تتقاضى خمسة جنيهات، في الوقت الذي كان يتقاضى فيه الشيخ رفعت عشرة جنيهات، ومع أن الشيخة منيرة عبده كانت على علاقة طيبة بكل القراء، إلا أنها كانت تفضل الشيخ محمد الصيفي على الجميع، وكانت تعتبره شيخ القراء جميعاً.

وقبل الحرب العالمية الأخيرة بقليل أفتى بعض المشايخ الكبار بأن صوت المرأة عورة. وهكذا اختفت الشيخة منيرة من الإذاعة، وتوقفت إذاعة لندن وإذاعة باريس عن إذاعة أسطواناتها خوفاً من غضب المشايخ الكبار، وبالرغم من تدفق المئات من خطابات الاحتجاج من المستمعين على إبعاد الشيخة منيرة، إلا أن الإذاعة لم تستطع أن تفعل شيئاً؛ فقد قُضي الأمر بعد فتوى المشايخ الكبار، واعتكفت الشيخة منيرة في آخر أيام حياتها في بيتها تجتر ذكريات الأيام الجميلة القديمة الحافلة، وعاشت حتى ماتت وهي تمارس هوايتها الوحيدة، وهي الاستماع والاستمتاع بأصوات العمالة الذين انتقلوا إلى رحمة الله؛ فقد كانت تحتفظ لهم بمجموعة كبيرة من الأسطوانات التي تحفظ أصواتهم.

وكانت تُردد دائماً أمام الأصدقاء والمتريدين عليها: إن الزمن يُفقد الأصوات بعض خصائصها الجميلة؛ ولذلك فهي تُفضل الاستماع إلى أصوات المشايخ الكبار عندما كانوا في فترة الشباب.

والحقيقة أن مصر كانت تضم العشرات من السيدات القارئات غير كريمة العدلية ومنيرة عبده ونبوية النحاس؛ فقد كانت إلى جانب هؤلاء السيدات الشهيرات الكثيرات من السيدات اللواتي يمارسن هذه المهنة في أحياء القاهرة الشعبية وفي الريف.

والسبب أنه كانت للأسر المصرية حتى بداية القرن تقاليد ظلوا متمسكين بها حتى الربع الأول من هذا القرن، كانت ليالي المآتم تُقام ثلاثة أيام للرجال وثلاثة أيام للنساء، وكان لا بد من وجود قارئات لإحياء ليالي المآتم عند السيدات، وفي البداية لم يكن هؤلاء السيدات يحترفن مهنة ترتيل القرآن، ولكنهن كن يحترفن مهنة النياحة، أو المُعدّات كما كان يطلق عليهن أبناء الشعب، وأشهر هؤلاء كانت الحاجة درباله بالجيزة، وعندما كانت تحترف النياحة كانت قادرة على أن تستدر الدمع من عيون الصخر، ثم احترفت قراءة القرآن فترة من الوقت، ولكنها لم تستمر طويلاً؛ فقد أُصيبت بمرض خبيث وماتت وهي في الخمسين من العمر.

وكانت هناك الحاجة خضرة في المنوفية، والست عزيزة في الإسكندرية، والست رتبية في المنصورة، والشيخة أم زغلول في السويس. والغريب أنهم جميعاً كن يحترفن النياحة في المآتم قبل أن يتحولن إلى قارئات. والنياحة مهنة معروفة في مصر، ويبدو أنها ميراث من قدماء المصريين، الذين كانوا يحتفلون بالميت أربعين يوماً بالتمام والكمال.

وكان للنياحة في مصر نجومٌ أشهر من نجوم السينما حتى منتصف القرن الحالي. وهذه المهنة نفسها ... النياحة ... كانت معروفة في الجزيرة العربية أيام الجاهلية وصدر الإسلام وكان يحترفها ابن سريج في المدينة، ومعبد في مكة قبل انتقالهما إلى الطرب والغناء، ولكن أشهرهم جميعاً في التاريخ المصري هي الشيخة أم عبد السلام. وقد ظهرت في العصر المملوكي، ثم تزوجت من شيخ مجذوب كان يحترف مهنة كتابة الأحبة ... وبعد أن استولى على ثروتها، هرب منها، ورفعت الأمر إلى المملوك الوالي، ولكنها اكتشفت أنه كان على علاقة بالوالي المملوك، وأنه كان كاتب الأحبة الرسمي للبلاد المملوكي، فأصابها الجنون ومزقت ملابسها، وراحت تجوب حواري القاهرة وأزقتها عارية كما ولدتها أمها، ورفع الناس شكواهم ضدها إلى المملوك الوالي، فأمسك بها وضربها وحبسها، وعندما أطلقها من محبسها عادت إلى سيرتها الأولى، فانقضَّ عليها بعض الحرافيش ورجموها

## ألحان السماء

بالحجارة حتى ماتت. ودُفِنَتِ الشَّيْخَةُ أُمَ عَبْدِ السَّلَامِ فِي مَقَابِرِ الصَّدَقَةِ، وَذَهَبَتْ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهَا.

وَالآنَ وَنَحْنُ عَلَى أَبْوَابِ الْقَرْنِ الْوَاحِدِ وَالْعَشْرِينَ، اخْتَفَتِ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ تَمَامًا فِي مِصْرَ، وَرَبَّمَا فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ أَيْضًا، وَلَكِنَّهَا مَوْجُودَةٌ فِي بِلَادِ جَنُوبِ شَرْقِ آسِيَا، وَقَدْ اسْتَمَعْتُ مِنْذُ عِدَّةِ أَعْوَامٍ فَقَطْ إِلَى قَارِئَةٍ فِي الْفَلِيبِينَ، وَاسْتَمَعْتُ إِلَى قَارِئَةٍ مَالِيزِيَّةٍ فِي تَايْلَانْدَ وَكَانَتْ تَقْرَأُ لِلرِّجَالِ، وَلَكِنْ مِنْ وَرَاءِ سِتَارٍ!

## عودة الشيخ

الشيخ أبو العيين شعيش من الشيوخ المتكلمين، أحياناً يقول كلاماً صحيحاً، وأحياناً يقول كلاماً من النوع المضروب، ومن كلامه الفارغ ما صرَّح به لمدوب جريدة يومية بأن عسكر يوليو منعوه من القراءة في الإذاعة، ولما سأله المحرر: ليه؟ أجاب قائلاً: لأنني كنتُ قارئ الملك قبل الثورة.

ويؤسفني أن أقول لكم — في شهر رمضان المبارك — بأن كل ما نطق به الشيخ في هذا الحديث كذب في كذب!

فهو أولاً وقبل كل شيء لم يكن قارئ الملك، ولكنه أحياناً كان يقرأ في السرايق الملكي داخل قصر عابدين في شهر رمضان، وكان يشترك مع عشرات من كبار القراء في ذلك الزمان، وإذا كان أحد القراء يستحق هذا اللقب «قارئ الملك» فهو المرحوم الشيخ مصطفى إسماعيل، الذي كان «قارئ الملك» بحق، ثم أصبح قارئاً للثورة، وعلى أساس قاعدة ثابتة ولا تتغير وهي خياركم في الجاهلية ... خياركم في الإسلام! وهي ليست كلمات كذب فقط، ولكنها نكران للفضل وعدم اعتراف بالجميل، وهي صفحاتُ كنت لا أود أن أصف بها الشيخ أبو العيين شعيش الذي تعرفتُ به وأنا شابٌ صغير قبل الثورة بعدة سنوات، يومها كان الشيخ شعيش أحد الأصوات العظيمة في دولة التلاوة، وقد أحدث في بدايته ضجةً كبرى في مصر، وفي العالم العربي؛ لأنه كان أقرب الأصوات إلى صوت الشيخ محمد رفعت؛ ولذلك وقع الاختيار عليه لتكملة أشرطة الشيخ محمد رفعت التي نال منها الزمن. وقام بهذا العمل الجليل مع زميله الأستاذ الدكتور أحمد هبة الذي كان يعمل أستاذاً في كلية الزراعة، ولا يستطيع أحد أن يتبين الفرق بين صوت الشيخ شعيش والشيخ محمد رفعت في تلك الأسطوانات والأشرطة إلا عبقرى مثل محمد عبد الوهاب، أو سميع قديم وخبير مثل كمال النجمي.

ثم حدث في بداية الستينيات أن أُصيب الشيخ بمرضٍ خطير أصاب أحباله الصوتية فلم يستطع القراءة، ولأن الدنيا كانت بخير لا تزال، فقد اتفق الرأي لدى عسكر يوليو على إذاعة أشرطة الشيخ القديمة، مع الاستمرار في صرف نفس المكافأة المالية التي كان يتقاضاها وهو قادر على العطاء، وظل العمل ساريًا على هذا الأساس، وحتى انتقل عبد الناصر إلى رحاب الله.

هذه هي قصة الشيخ شعيشع مع عسكر يوليو كما حدثت بالتمام والكمال، وإذا كان هذا هو نوع الكلام البطال الذي يقوله الشيخ شعيشع، فهناك نوعٌ آخر من الكلام صرّح به في رمضان قبل الماضي لمدوب الإذاعة البريطانية في لندن، عندما سأله عن السر في عدم ظهور أصواتٍ جديدة مميزة في دولة التلاوة، فأجاب الشيخ بأنها ظاهرة غريبة ومريبة أيضًا، وكشف الشيخ شعيشع عن سر لم نكن نعلمه؛ فقد مسح الشيخ مصر كلها من أسوان وحتى الإسكندرية بحثًا عن أصواتٍ جديدة وواعدة وبتكليف من وزارة الأوقاف، ولكنه لم يعثر على صوتٍ واحد يبشر بالخير، ولما سُئل عن السر وراء هذا العقم الشديد، أجاب الشيخ:

إن السبب في رأيه شخصيًا هو الأكل البلاستيك الذي يتعاطاه المصريون منذ عدة سنوات ... وهذا القول من الشيخ شعيشع على ما يحمله من سخرية هو القول الصحيح ... اختفت الفراخ البلدي، وأصبح السمن البلدي أندر من المخدرات، والعسل الأبيض تحول إلى مياهٍ مخلوطة بالسكر، والعيش البلدي الحلو حل محله العيش الأسمنت، والسمك النيلي يحمل سمومه ويسبح بين الأمواج، واللحم الفاسد يبني العمارات على النيل للسادة المستوردين ... ويبني المدافن للملايين من أبناء مصر في صحراء الهرم وفي صحراء الفيوم، ناهيك عن فراخ المزارع المحقونة بحبوب منع الحمل، وسمك المزارع الذي يتغذى من المجاري.

والطعام الفاسد ينتج أحيانًا صوتية فاسدة، والنتيجة كما نشاهدها اليوم ونلمسها جميعًا، سواء في مجال الغناء أو في مجال التلاوة، وصار التقليد هو العملة السائدة. الدكتور نعينع مثلًا هو الصوت المفضل الآن لدى أجهزة الإعلام، مع أنه نسخة مقلدة من الشيخ مصطفى إسماعيل. وهناك عشرات من القُرّاء يقلدون الشيخ الطبلاوي، والباقون لا يقلدون أحدًا لأنهم لا يستطيعون، ولا يقولون شيئًا لأنهم ليسوا مؤهلين وليسوا قادرين، وأصبحت المسائل سهلة؛ لأن كل ما يذيعه التليفزيون بالذات من أصوات في مجال التلاوة هي أصواتٌ مضروبة، ولو ظهر أصحابها في منتصف القرن لكانت أسمى أمانيتهم هي

التلاوة في مقابر الإمام الشافعي؛ لأن قُرأ قرافة الإمام الشافعي في تلك الفترة كانوا بالتأكيد أرفع مستوى من قُرأ التليفزيون هذه الأيام، تبقى الإذاعة، ويبقى لإذاعة الشرق الأوسط فضلٌ علينا وعلى المستمعين بشكل عام، ولأنها احتفظت لنفسها بصوت عبقرى الحنجرة والقلب الشيخ محمد رفعت، ولكن الإذاعة بوجه عام فرطت في حقها وفي حقنا أيضاً عندما أهدرت تراثها العظيم من تسجيلات أصحاب الأصوات النادرة.

ونعود مرةً أخرى إلى الشيخ شعيشع الذي كان طالباً بمدرسة المنصورة الثانوية، شاب حكم عليه جميع الأساتذة بأنه لا يصلح لشيء؛ لأنه أبداً ساهم على الدوام، وكان الغريب في أمر الفتى أنه كان على الدوام يحرك شفثيه بكلام خافت. وكان الذين يُجاورونه في الفصل يعلمون أنه يرتل القرآن، ورسب الطالب عامّاً وأعواماً كثيرة، واستدعى الناظر أخاه الكبير ليقول له: إن أخاك لا يصلح هنا.

كان هذا آخر عهد «أبو العينين شعيشع» بالمدرسة، وخرج الشيخ أبو العينين إلى الشارع، يسهر كثيراً في الموالد ويحوم حول المنشدين في الأسواق، ويطرب كلما سمع أن أحداً من كبار القراء سيسهر الليل في المنصورة، وكان أخوه «الشيخ أحمد شعيشع» من مشاهير القراء في المنصورة، فكانت فرصة طيبة للسيد أبو العينين أن يذهب معه كل مساءً إلى كل مأتم أو ليلة مولد يحتفل بها.

وسمع الشيخ أبو العينين في الليالي الكثيرة التي سهرها الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي، والشيخ محمد الصيفي، والشيخ محمد رفعت، وذات ليلة كان الشيخ أحمد متعباً، فحل محله الشيخ أبو العينين، وسمعه الشيخ رفعت فأعجب به، وتنبأ له بمستقبل باهر، ثم لم يلبث الشيخ أبو العينين أن نزح إلى القاهرة، وكان ذلك في عام ١٩٤٢م؛ فقد سمعه رجل من رجال القصر الملكي، فاستدعاه ليقراً في الإذاعة، ومنذ ذلك الحين والشيخ أبو العينين لا يفارق الشيخ رفعت، الذي اتخذ منه تلميذاً له، واتخذ الشيخ أبو العينين من القاهرة مقراً له، ولم يلبث أن نزح إليها الشيخ أحمد شقيقه الأكبر بعد أن اعتزل القراءة في المنصورة، وعاش ليرعى شئون أخيه.

وفي عام ١٩٤٨م، بلغ أجر الشيخ أبو العينين مائة جنيه في الليلة الواحدة، وأصبح يتقاضى خمسة وعشرين جنيهاً عن كل إذاعة له من محطة القاهرة، وهو مبلغ لم يصل إليه حتى الآن سوى أربعة من كبار القراء مصطفى إسماعيل، وعبد الفتاح الشعشاعي، ومحمد الصيفي، والشيخ أبو العينين.

وعندما تُوفيت ملكة العراق سافر الشيخ إلى بغداد ليُحييَ مآتمها بدعوة رسمية من الحكومة العراقية، وتقاضي في تلك الرحلة ثلاثة آلاف جنيه، وفي عام ١٩٥٢م، استدعته الإذاعة المصرية ليقوم بتكملة أشرطة المرحوم الشيخ محمد رفعت.

والذين يستمعون الأشرطة الآن لا يستطيعون ببساطة تمييز صوت الشيخ شعيشع أثناء التلاوة، السبب في ذلك أن الشيخ أبو العينين كان يقرأ بطريقة الشيخ رفعت قبل وفاته، وكان الشيخ رفعت يرضى عنها كثيرًا، إن الشيخ أبو العينين في الخامسة والسبعين من عمره، وكان يرتدي الكاكولا والطربوش مخالفًا بذلك الزي التقليدي للمشايخ الذين ظهروا في دنيا التلاوة، ولكنه اضطر إلى خلع الطربوش عندما زار تركيا، وكان مندوب السفارة المصرية في انتظاره بالمطار، وحذره المندوب من ارتداء الطربوش في إسطنبول لأن عقوبة ارتدائه السجن، فخلع الشيخ الطربوش، وتعمّم بمنديل، ثم تعمّم بعد ذلك بشالٍ أبيض.

ولكن سوء الحظ تدخل في حياة الشيخ وهو في قمة عنفوانه وشبابه؛ فقد أصابه مرضٌ غريب أثر على أحباله الصوتية، ثم مات أخوه الشيخ أحمد الذي كان بمثابة الوالد، ولكن الشيخ استطاع بالصبر أن يهزم مرضه، وعاد إلى القراءة من جديد، ويسافر كل عام إلى الخارج لإحياء ليالي شهر رمضان المبارك، وأشرطته تسجل أرقامًا عالية في التوزيع، كما أنه يلعب الآن دور الكشف في لعبة كرة القدم، وله جولات واسعة في ريف مصر لاكتشاف المواهب الجديدة، وله رأي في عدم وجود أصواتٍ جديدة واعدة.

والسبب في رأي الشيخ أن الكتاتيب اختفت في الريف، كما أن الأكل البلاستيك والماء الملوّث، واستخدام الأسمدة الكيماوية أثّرت عضوياً على صحة الإنسان، وهو رأي صحيح بالتأكيد؛ لأن الناس زمان كانت تأكل الطعام الطبيعي بلا كيماويات ولا تلوث ... ولهذا السبب كان في مصر أكثر من عشرين قارئاً للقرآن من فصيلة العباقر، اجتمعوا جميعاً في وقتٍ واحد في بداية القرن العشرين.

والآن ... ربما لا يوجد من صنف العباقر إلا شخص أو شخصان والباقون من صنف البلاستيك كالطعام الذي يأكلونه، ولا يزال الشيخ شعيشع يعيش بيننا، نفحة من نفحات الماضي الجميل الذي عاشه المصريون وسعدوا به.

## صوتُ عموم المسلمين

صوت الإنسان مثل لون عينيه ليس له دخل فيه وليس له دلالة.  
العيون الخضر مثلاً لا تدل على أن صاحبها مغفل أو ذكي أو حريص أو نواصي الطبع  
يرتكب الإثم ويفخر به ولا يبالي.  
والصوتُ القبيح قد يكون لصاحب نفس طيبة، والصوت الجميل قد يكون لشيطانٍ  
رجيم!

والشيخ عبد الباسط عبد الصمد له صوتٌ جميل ونفسية طيبة أيضاً، وعندما يكون  
لك نفسية طيبة وصوتٌ قبيح، فلن تكسب شيئاً. فإذا كان لك صوتٌ جميل ونفسية من  
أي لون فستصبح ثرياً وشهيراً قبل أن تبلغ الثلاثين، فإذا كان صوتك من معدن الشيخ  
عبد الباسط، فأنت تستطيع أن تدخل التاريخ كصاحب صوت وطريقة من أجمل ما عرفته  
دولة التلاوة في تاريخها الطويل.

بدأ الشيخ عبد الباسط يعشق سماع القرآن الكريم من المشايخ الكبار في مساجد  
أرمنت وفي مقابرها، ولكنه كان يُفضل سماعه منبعثاً من ذلك الصندوق السحري الذي  
اسمه الراديو.

وفي عام ١٩٣٩م، كان هذا الصندوق أندر من الذهب، وكان في أرمنت كلها راديو  
واحد يبعد عن بيت الشيخ عدة أميال، وكان الشيخ يذهب حيث يوجد الصندوق مرتين كل  
أسبوع، مرة في يوم الثلاثاء ومرة أخرى في يوم الجمعة، وهذه اللحظات التي كان يقضيها  
بجوار الصندوق هي أسعد لحظات عمره.

كان يجلس مستنداً على جدار الدكان والصندوق السحري ينبعث من داخله صوت  
كأنه السحر، صوت فيه شجن وفيه قوة وفيه خشوع وفيه رهبة، وفيه دعوة إلى ملكوت  
الله! كان هو صوت المرحوم الشيخ محمد رفعت.

وفي عام ١٩٤٠م بدأ الشيخ عبد الباسط يحترف قراءة القرآن، وكانت أولى لياليه في قريته، وفي مآتم أحد أقاربه، وقرأ عشر ساعاتٍ كاملة، ثم نقدوه أجره في الصباح، وكان الأجر عشرة قروش فضة كبيرة مثل العيش المرحح وعليها نقوشٌ بارزة تقول إنها ضُربت في عهد السلطان!

واشترى الشيخ حلاوة طحينية وملبن وكراملة وفول سوداني ولب ووضع الباقي في حصاله؛ فقد كان حلمه الكبير أن يقطع تذكرة ويركب القطار إلى بلد بعيد! وفي سن الخامسة عشرة تحقق حلمه الكبير، ركب القطار القشاش من أرمنت إلى قرية مجاورة وسهر هناك حتى الصباح، وعاد ومعه خمسة وعشرون قرشاً كاملة وكانت هذه الليلة هي تاريخ ميلاده؛ ففي تلك الليلة ولد قارئٌ جديد صوته قوي وجميل، وهو شاب وصحته جيدة، وله أسلوب في القراءة لا يقلد فيه أحداً، وإنما هو لونٌ جديد!

ومن تلك الليلة بدأت شهرة الشيخ عبد الباسط، وانفتحت أمامه قصور العُمد والأعيان وباشوات الصعيد، وأصبح جَوَّابَ أفاقٍ يخرج من بيته أول الشهر فلا يعود إليه إلا في نهايته. وتزوج وأنجب، وعبر البحر إلى بيت الله الحرام، وقرأ في الكعبة الشريفة، وعلى مسمع من نصف مليون من البشر، بينهم الهندي والعربي والتركي وابن القوقاز والذي من نسل المغول! ثم عاد ليعيش في قريته مرة أخرى.

وفي عام ١٩٥٠م، جاء الشيخ إلى القاهرة ليزور السيدة زينب، وفي ليالي المولد كان يندس في الزحام كل ليلة مجهولاً مغموراً، يتفرج على الأضواء والألعاب وعلى الأذكار، ويخلع نعليه ويحف إلى داخل المسجد، ليستمتع إلى القراء الكبار. وفي الليلة الختامية كان هناك أكثر من قارئ عملاق يخوضون فيما بينهم معركة حامية لإحياء مولد السيدة، ثم أدرك التعب هؤلاء المشايخ الكبار فكفوا عن التلاوة، ثم دعا بعض الناس الشيخ عبد الباسط إلى القراءة؛ فهو على الأقل يستطيع أن يقتل الوقت حتى يستريح المشايخ الكبار، ويستأنفوا التلاوة.

وتقدم الشيخ عبد الباسط على حذر، وقرأ وهو يتوجس شراً، والناس أيضاً يتوقعون شراً، وعندما انتهت من التلاوة كان الفجر على الأبواب، وكان المسجد قد ضاق بالناس وخرج من المسجد في الصباح وعلى يديه ألف قبلة، ومعه أكثر من عقد لإحياء الليالي هنا وهناك، ولأول مرة أيضاً وصلت إلى يديه عشرة جنيهات كاملة ... ثم عشرون ... ثم ثلاثون ... ثم خمسون وعند ذلك قرر اعتزال الصعيد والبقاء إلى الأبد في القاهرة، ونام الشيخ عبد الباسط في لوكاندة الشرق في السيدة زينب، ولم يمضِ عامان حتى وصل صوته إلى الإذاعة.

ووصل أجره ١٢ جنيهاً كل نصف ساعة، ووصل أجره في الليلة إلى مائة جنية، وغادر الشيخ عبد الباسط القاهرة إلى أرمنت ثم عاد ومعه كل العائلة، شقيقان وزوجته ونصف دسنة من الأطفال.

وذاع صيت الشيخ في كل مكان، وقفز أجره إلى مائتي جنية ثم إلى ثلاثمائة جنية. والشيخ عبد الباسط طاف حول الكرة الأرضية وذهب إلى الشرق وإلى الغرب، ولم يُثر انتباهه شيء في تلك البلاد إلا المعجبون بفنه ... في إندونيسيا مثلاً كان المعجبون يقفون بالساعات ليستمعوا إليه، وفي مراكش قرأ للملك وحده، وفي باريس لم يجد مستمعين ولم يجد معجبين فشعر بالاختناق وهجرها بعد ثلاثة أيام، هجرها إلى كازابلانكا، وهو لا يذكر من باريس إلا شارع نهر الصين «السين»، وكان يحلو له أن يتنزّه فيه كل مساء وهو بالجبة والقفطان.

والشيخ عبد الباسط لم يؤمن بالسينما ولا بالمرح ويحب القراءة، وأحسن كاتب قصة في نظره هو عباس العقاد! طه حسين كويس أيضاً، وهو مدمن قراءة صحف، وأحسن كُتّاب الصحف هو محمد حسن بن هيكل ثم كامل الشناوي، ولا يغيبه في الجرائد إلا الكذب، إنها تكذب كثيراً، روت عنه أخباراً ملفقة وقصصاً من نسيج الخيال، وأطلقت عليه اسم «براندو» وهو يشعر بالأسف لإطلاق هذا الاسم عليه؛ لأن براندو ممثل ولأنه أمريكياني، ولكن الشيخ يتسامح مع الصحفي حتى لو أساء إليه!

والقارئ فنان، وبعضهم يستطيع أن يصبح مطرباً ويبسط الناس، ولكن القارئ يكسب أضعاف المطرب، إنه لا يحتاج إلى مؤلف ولا إلى تحت ولا إلى كورس ولا إلى ملحن؛ لأن الملحن هو علم أحكام القراءة.

والشيخ عبد الباسط لم يقرأ شعراً ولم يهتم بالشعراء، وسمع أن هناك رجلاً اسمه شوقي، ولم يعلم إن كان حياً يُرزق أو طواه القبر، ويعرف أن توفيق الحكيم هو رئيس الشعراء، وكان أحياناً يسع الأغاني، وأحسن مطرب لديه كان محمد عبد الوهاب، وأحسن أغانيه هو في الليل لما خلي، وفايت على بيت الحباب، وعبد الحليم حافظ مش بطل، وأم كلثوم معجزة ... فلتة لن وجود بمثلها الزمان! إنها في الطرب مثل الشيخ محمد رفعت في التلاوة، وكلاهما عبقرى، وكلاهما فيه سحر من عند الله.

ولكن أشرطة رفعت التي تذيعها الإذاعة الآن تسيء إلى الشيخ، إنها صدّى هزيل لصوته الحقيقي، الذي هو بحق أعجوبة الزمان! وكان يؤمن جداً بالحديث الشريف: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وقد عمل لندياه، أحب الأسفار والرحلات، وأنفق عن سعة وسكن في شقة فاخرة، وكان في مكتبه تليفون أخضر، وكانت لديه عربة شيفروليه آخر موديل، وكما عمل لندياه عمل لآخرته، ومن أجل آخرته دخل مؤسسًا في بعض الشركات، وأقام في أرمنت عمارة ضخمة، ولكنه لم يملك أرضًا ولا نقودًا، ولكنه كان يملك الستر، وكان دائمًا يسأل الله أن يديم الستر عليه!

وكان يميل في حياته للعزلة، كما كان يكره الاختلاط، وكانت وسيلته الوحيدة للاتصال بالناس هي الخطابات، وكان يضع في درج مكتبه ألف صورة له يضعها في خطابات في لون البنفسج، ويرسل بها إلى المعجبين في كل مكان.

كانت هوايته الوحيدة هي قضاء عدة أسابيع كل شتاء في أسوان والاعتكاف في منزله طوال العام والعبث بحبات مسبحة نادرة خضراء في لون البرسيم ... ولون السيارة والجبة ... والتليفون.

ولكن ولأن الأقدار بيد السماء — على رأي عمنا زكريا الحجاوي يرحمه الله — فقد أصيب الشيخ عبد الباسط وهو في ريعان شبابه وقمة مجده بمرض السكر اللعين. نال المرض من صحته ومن صوته، فلم يعد هو الشيخ عبد الباسط الذي نعرفه، أنهكه المرض وظهرت آثاره على صوته الجميل، وداخ الشيخ بحثًا عن دواء يصلح ما أفسده الدهر، ولكن سعيه لم يشفع له؛ فما هو مكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين، وحدث أن جاء أحد الأمراء إلى القاهرة واتصل بالعبد لله طالبًا منى القيام بواجب نحو الشيخ عبد الباسط، فقد جاء إلى القاهرة ومعه دواء من حبة البركة يحقق الشفاء للشيخ الذي بهر الجميع وأحبه الجميع، وسألت عن الشيخ، واكتشفت أنه يقضي فترة في المدينة المنورة بجوار قبر الرسول، وحدد لي موعد حضوره، واتصلت به في المساء، وأجابني صوت مشروخ من شدة البكاء، وعندما سألتُه عن الشيخ أجابني في حزنٍ شديد:

لقد مات منذ ساعات.

رحم الله الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، الذي أحبه الملايين وعشقوه ... من أمريكا حتى الصين!

## الأستاذ والفنان والتابع!

خارج مصر ... وفي كل أنحاء العالم الإسلامي كانوا يطلقون عليه شيخ القراء المصريين، وهي تسمية خطأ، والصحيح أنه شيخ المقارئ، والمقارئ هي إدارة رسمية، وكان المرحوم الحصري هو شيخها بلا منازع، أما شيخ القراء في عصر الشيخ الحصري فكان الشيخ مصطفى إسماعيل صاحب الحنجرة الذهبية، وبوفاته احتل الشيخ عبد الباسط عبد الصمد مكانه بلا منافس؛ فهو صاحب الحنجرة الفضية، وأحد أعلام القراءة في العصر الحديث! والشيخ الحصري — رحمة الله عليه — كان صاحب مدرسة مميزة في الأداء، ولكنه لم يكن من الطبقة الأولى بين القراء. وكان أقرب إلى الشيخ محمد الصيفي، وكلاهما عالم في القراءات وأستاذ في التجويد، وكلاهما حُجة في القراءات الصحيحة ... ولا يزيد! والفرق بين مصطفى إسماعيل ومحمود الحصري هو ذاته الفرق بين الأديب نجيب محفوظ وأستاذ الأدب في الجامعة، وهو نفسه الفرق بين المدرب الجوهري ومحمود الخطيب ... فالأول مدرس والثاني فنان، ومن السهل إنتاج ألف أستاذ ولكن من العسير خلق فنان واحد؛ لأن الفنان من صنع ربي وليس من صنع المدرس والجامعات.

في استطاعة أي إنسان أن ينشئ جامعة لتخريج ألف متعلم، ولكن ليس في استطاعة أي مخلوق أن يُنشئ موهبة حتى ولو كانت ضئيلة الحجم أو قصيرة القامة؛ لأن الموهبة نبتة غريبة في حقل البشرية، وهي هبة إلهية، ثم تجربة وتحصيل بعد ذلك. كما أنها لا تتكرر، فهي طليقة واحدة سواء استقرت في الهدف أو طاشت في الفضاء! ولقد كان الحصري عالماً فذاً ومتعلماً عظيماً وكان دارساً ومدرساً، وترك بموته فراغاً كبيراً لأن أغلب القراء الذين على قيد الحياة الآن لم يحصلوا تعليمه، ولم يبلغوا علمه وبعضهم موهوب، والبعض الآخر لا فن ولا معرفة ولا رغبة في شيء من هذا ... ولا أمل!

وما أكثر القُراء العظام الذين ظهروا في مصر منذ بداية هذا القرن، وكان من بين هؤلاء أستاذ جامعي هو الدكتور أحمد هيبة، وكان يتمتع بصوت قوي وقرار سليم، ويعتبر واحدًا من اثنين في مصر يجيدان تقليد صوت محمد رفعت، وكان الآخر هو الشيخ أبو العينين شعيشع.

حرص الدكتور هيبة على أداء صلاة الجمعة في مسجد فضل باشا بالجماميز، وهو المسجد الذي ظل الشيخ رفعت يقرأ فيه حتى مات، وقد تنازل الدكتور هيبة عن أجره من إذاعة القاهرة، ولكنه كان يقبل أجره من الإذاعات الخارجية، ورفض في الوقت نفسه كل العروض التي عُرضت عليه لاحتراف التلاوة، وآثر أن يكون هاويًا في دولة التلاوة ويمارس وظيفته كأستاذ للحشرات في كلية الزراعة، وظل رافضًا إلى آخر يوم في حياته لجميع العروض التي عُرضت عليه القراءة في المآتم والحفلات العامة؛ ولذلك لم يشتهر الدكتور أحمد هيبة جماهيريًا بما فيه الكفاية، وظل حريصًا على أن يتمتع بكل الفضائل التي يجب أن يتحلّى بها قارئ القرآن، وعندما مات الدكتور أحمد هيبة ترك وراءه ثروة من الأسطوانات القديمة لعباقرة دولة التلاوة وأساتذة فن الإنشاد الديني.

وكان من بين هؤلاء العظام الذين ظهروا في دولة التلاوة الشيخ محمود عبد الحكم، وكانت لأدائه نكهة خاصة، وبالرغم من أدائه الغد وصوته المحبّب إلى النفوس وانتشاره الواسع في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فقد ظل يعيش عيشة متواضعة؛ لأنه لم يكن يحدد لنفسه أجرًا، وكان يفضل مشاركة مصطفى إسماعيل في المآتم والحفلات العامة، وكان يقبل أي أجر يقدمه إليه ويدسه في جيبه دون أن ينظر إليه، ولم يحدث في حياته كلها أن اختلف مع أحد من أبناء مهنته.

وكان الشيخ محمود علي البنا من اللامعين في دولة التلاوة، وكانت له طريقة خاصة ومتميزة، ومن أغرب الأشياء أن العبد لله وقع بصره أول مرة على الشيخ محمود علي البنا في حقة الأربعينيات، وفي مبنى جمعية الشبان المسلمين، وكان الشيخ محمود علي البنا أحد أفراد فريق المصارعة بالجمعية، وعندما احترف التلاوة استطاع أن يشق طريقه بسهولة وبسرعة فائقة إلى الصفوف الأولى، فصار في وقتٍ قصير نذًا للشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبد الباسط عبد الصمد.

والشيخ محمود علي البنا يمتاز بأنه صاحب رؤية سياسية وصاحب موقف أيضًا، وكان ناصريًا ومعجبًا، على نحوٍ ما، بانحياز حكومة عبد الناصر إلى صفوف الفقراء، وظل حريصًا على قراءة القرآن في بيت عبد الناصر في مناسبة الاحتفال بذكره كل عام، وكما

كان جميل الصوت، كان أيضًا جميل الصورة، وكان خير سفير للإسلام بكل مكان يحل فيه.

حدث أن حاصره مئات الألوف من المسلمين في إندونيسيا ومنعوه من الانصراف ولم يتركوه إلا بعد أن ظل يقرأ لهم لمدة ست ساعات متصلة، وقد اقترح بعد نكسة ١٩٦٧م أن يسافر ضمن وفد من كبار القراء إلى جميع الدول الإسلامية في آسيا وأفريقيا لجمع التبرعات لصالح إزالة آثار العدوان، ولكن الدولة رفضت الاقتراح، ومات الشيخ محمود علي البنا بعد مرضٍ خاطف لم يمهله طويلاً. وخسرت دولة التلاوة صوتاً من أعذب وأجمل الأصوات التي عرفتها في تاريخها الطويل.

ثم ظهر الشيخ هريدي الشوربجي وهو من الأصوات الذهبية ولكن أحداً لم يهتم بتسجيل صوت الشيخ النادر؛ ولذلك ضاع صوته بعد موته مع أنه عاصر الأسطوانات وشهدت فترة من حياته عصر أشرطة التسجيل، كما كان هناك الشيخ محمد مجد والشيخ شفيق أبو شهبه قارئ جمهورية زفتى، بالإضافة إلى الشيخ محمد سعودي قارئ طنطا والشيخ شتات قارئ الجيزة.

ولكن أغرب ظاهرة في دولة التلاوة هي ظاهرة الشيخ مهدي السوداني، وهو قارئ مصري سوداني، وكان نموذجاً رائعاً لوحدة وادي النيل، وقد عاش الشيخ مهدي في حي عابدين بالقاهرة في صدر شبابه، وعندما استمع إلى الشيخ علي محمود أول مرة قرر أن يتبعه كظله، وصار الشيخ مهدي جزءاً من حياة الشيخ علي محمود، يتواجد في المكان الذي يوجد فيه الشيخ علي، ويكون أول الحضور في حفلات الشيخ، ويكون آخر المنصرفين من حضرة الشيخ علي؛ ولهذا فقد الشيخ مهدي شخصيته وذاب في شخصية الشيخ علي فأصبح يتكلم مثله ويقرأ على طريقته وينشد التواشيح بأسلوبه، ويكح كما يكح الشيخ علي، وكأنه كوكب صغير يدور حول الشمس وإلى الأبد.

وقد نجح الشيخ مهدي في أن يصبح عضواً في بطانة الشيخ علي محمود، وقبل أن يموت الشيخ علي بفترة قليلة، وعندما استقلت السودان عاد الشيخ مهدي إلى أرض الجذور، فحمل الجنسية السودانية وترك مسقط رأسه ومرتج صباه في عابدين وعاد إلى الخرطوم، ولكن أين صخب الحياة وبهجتها في عابدين من هدوء الخرطوم؟

أصيب الشيخ مهدي بصدمة كبيرة من شوارع الخرطوم الهادئة الخالية من المارة، ولعدم وجود المقاهي الشعبية الساهرة حتى الصباح كما كان الحال في سوق الاثنين، وفي حي البلاقسة، وراح يجتر أيامه مع شلة من الأصدقاء من أبناء الجالية المصرية، وظل

الشيخ مهدي حريصًا على قراءة القرآن بالسفارة المصرية في عيد ثورة يوليو، كما كان حريصًا على زيارة القاهرة كل صيف لرؤية الأهل والأقارب الذين آثروا البقاء في مصر والإقامة في عابدين.

والغريب أنه مات بعيدًا عن وادي النيل الذي أحبه، ووافاه الأجل المحتوم في رحلة حج إلى بيت الله الحرام، ودُفن في البقيع مع الصحابة والتابعين! ويخشى العبد لله أن يكون قد نسي أحدًا من نجوم دولة التلاوة، وإن كان من الضروري أن أتعرض لذكر الشيخ علي، وهو أحد القراء الذين ظهروا في بداية القرن وكان من السهل عليه أن يحتل مكانًا لا تفتأ به تحت الشمس، ولكن حظه السيئ أصابه بمرض في صوته أجبره على التوقف.

ولما كان الشيخ علي يتمتع بتكوين جسماني يشبه تكوين الملاكم، قامة فارعة وصدر عريض وعضلات مفتولة، فقد اكتفى بحضور حفلات المآتم والمناسبات التي يُحييها كبار القراء، وكان محله المختار على مقعد بجوار دكة القارئ، وكان يقوم خلال السهرة بدور المطيباتي للشيخ الصييت، ويقضي السهرة يكرر بعض العبارات استحسانًا لصوت القارئ وتشجيعًا له، وهي عبارات محفوظة وقديمة ومكررة مثل ... يا مشبع، صلي على النبي كده واشرع، صلي على حضرة النبي ﷺ، وهي مهمة لا يزال يمارسها حتى الآن مئات من غير المهوبين، ويحصلون آخر السهرة على ما يجود به القراء، ولكن عمنا الشيخ علي لم يكن من النوع الذي يرضى بالجودة التي هي من الموجود، لكنه كان يُصر على مشاركة القارئ في الأجر الذي حصل عليه، ولأنه كان شديد القوة وشديد البأس فقد خضع له أغلب القراء، ولكن سوء حظ الشيخ علي الذي لازمه منذ البداية أوقعه في شر أعماله؛ فقد تحرش بأكبر رأس في دولة القراء وهو الشيخ محمد رفعت، وكان سوء حظه مضاعفًا لأن السرايق الذي شهد الحادث كان مُقامًا في حي المدبح.

وفي تلك الليلة رفع الشيخ علي يده وهوى بها على وجه الشيخ رفعت، ولكن كفه لم تصل إلى وجه الشيخ؛ لأن الشيخ علي نفسه كان قد سقط على الأرض، وأتحفه عشاق الشيخ رفعت بعلقة لم يأكل مثلها حمارًا في مطلع، وكانت هذه هي آخر مرة يُشاهد فيها الشيخ علي في الحياة!

وإذا كنا قد تعرّضنا لحياة العظماء من أبناء دولة القراء، فلا بد قبل أن نُسدل الستار على الماضي المجيد أن نتعرّض لتاريخ الرجل الذي كان له الفضل الأول في إحياء دولة التلاوة، وهو الذي فتح الطريق ومهّده وفرشه بالورود والرياحين ... عمنا ومولانا فضيلة الشيخ ندا، سلطان دولة التلاوة في العصر الحديث!

## وأجبروا الشيخ على الغناء

قليلون جدًّا يعرفون أن محمد عبد الوهاب — في صباه — كان يعرض أُلحانه على اثنين من كبار القُرَّاء؛ أحدهما الشيخ علي محمود، والثاني رجل يُدعى الشيخ حسن المناخلي ... وكان عبد الوهاب يلجأ إليهما كلما واجهته مشكلةٌ عويصة عند أداء لحن من الألحان ... وكان الشيخ المناخلي يتمتع بصوتٍ جميل وأداء قَلَمًا تجد له نظيرًا بين القُرَّاء، واستطاع الشيخ المناخلي أن ينتزع الشهرة بطريقةٍ فذة؛ فقد كان يشترك مع الشيخ منصور بدَّار في إحياء ليلة بحي السلخانة، وكان الشيخ بدَّار معروفًا بمهارته في «سرقة» الجمهور؛ فقد كان لا يدع الفرصة لزميله ليقرأ الوقت المخصَّص له ... فقد كانت طريقته في الأداء — مع ما له من صوتٍ جميل — تجعل الجماهير تُصر على سماعه حتى النهاية، فضلًا عن أنه كان في قمة الشهرة.

وكان الشيخ المناخلي في بدء حياته ... ولم يكن قد ذاع صيته بعدُ، وعندما انتهى الشيخ بدَّار ... عادت الجماهير تُلح عليه أن يواصل قراءته، فاستجاب لها، وعندما انتهى ارتفعت الأصوات من كل جانب تطلب إليه مواصلة التلاوة حتى الصباح، وعندما هم الشيخ بدَّار تقدَّم منه الشيخ المناخلي، ودفعه بيده فألقى به من فوق «الدكة» وأخذ مكانه، وهاجت الجماهير، وهَمَّت بضرب الشيخ المناخلي، ولكنها سكَّنت وهدأت بعد أن استمعوا إليه، وعندما انتهى أصرت الجماهير على أن يواصل التلاوة، وانسحب الشيخ بدَّار ليلتها من الحفل ... بعد أن تمكن الشيخ المناخلي من سرقة جمهوره بنفس الطريقة التي كان يتبعها الشيخ بدَّار.

وعاش الشيخ المناخلي يقرأ عندما يريد، وليس كلما طلب إليه أحد من الناس؛ ولذلك لم يربح كثيرًا ... وكان يكسب ما يكفيه، ومات قبل إنشاء محطة الإذاعة ... وترك عدة أسطواناتٍ قليلة ضاعت بعد ذلك، ولم يُعد أحدٌ يعرف أين ضاعت؟ وقبل أن يموت لَحَن

عدة قصائد «ياقوتي الشفتين فالج السنتين»، وتوشيح «كالبدر ليلة التمام»، وتعتبر هاتان القطعتان من أروع ما لحن في الموسيقى الشرقية، وظل عدة سنوات يرفض القراءة في الحفلات، وكلما سُئل عن سر عزوفه عن التلاوة قال: إن الناس تسمعي وتسمع الشيخ البربري، وكان هو — يرحمه الله — لا يرضى عن طريقة الشيخ البربري وغيره من مشاهير عصره.

لم ينل قارئ في عصره، وفي إقليمه من الشهرة مثلما نال الشيخ صديق المنشاوي، والد الشيخ محمد صديق المنشاوي «قارئ الإذاعة المعروف»، رفض أكثر من مرة أن يذيع رغم العروض المغرية التي عُرِضَت عليه، وأخيراً منذ حوالي ٤٠ عاماً سافرت بعثة من رجال الإذاعة إلى قنا لتسجيل شريط للشيخ المنشاوي ... وقيل الرجل هذه المرة، وتمت إذاعة الشريط اليتيم له في محطة الإذاعة.

نشأ الشيخ صديق المنشاوي وعاش في مديرية قنا، وذاع صيته فيها وفي الأقاليم المجاورة، واتصل في شبابه بالشيخ أبو الوفا الشرقاوي فطرب لصوته، وجعله من خاصته، ورفض الاشتراك في إحياء الليالي خارج حدود مديرتي قنا وجرجا، وعاش حياته كلها لا يساوم على الأجر ولا يتفق عليه!

حدث مرة قبل الحرب الأخيرة بأعوام — وكان الشيخ المنشاوي يتقاضى جنيهاً واحداً عن كل ليلة — حدث أن كان يقرأ في مأتم أحد أعيان قنا، وفي آخر الليل دس شقيق الميت «بشيء» في جيب الشيخ المنشاوي، وانصرف الشيخ دون أن يلقي نظرة على هذا الشيء، واكتشف الشيخ وهو في المنزل أن الشيء الذي دسه الرجل في جيبه مليمٌ واحد لا غير! وقبل أن يفكر في هذا الذي حدث، كان الرجل صاحب الليلة يطرق باب الشيخ ليعتذر له عن الخطأ الشنيع الذي وقع فيه؛ فقد كان في جيب الرجل جنيه ذهبي ومليم، وكان ينوي إعطاء الجنيه للشيخ، فأخطأ وأعطاه المليم، ولكن الشيخ المنشاوي رفض أن يتقاضى شيئاً فوق المليم قائلاً: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾.

وكان للشيخ المنشاوي ولدان أكبرهما الشيخ محمد صديق المنشاوي القارئ المعروف، والثاني كان ذا صوتٍ جميل وموهبةٍ حسنة، وكان يقرأ القرآن والتواشيح، وفي ليلة من ليالي عام ١٩٣٩م، وقَّع عقدًا مع إذاعة الشرق الأدنى، واستعد للسفر إلى القدس، ولكنه استيقظ عند الفجر فقد استبد به القلق، وضايقه الحر، ووقف برهة ينظر من النافذة في الدور الخامس، ولم تمض دقائق حتى شعر بإغماء سقط على أثره من النافذة إلى الشارع فمات،

وفي مأتمه قرأ الشيخ محمد رفعت، والشيخ علي محمود، وغيرهما من مشاهير القراء؛ فقد كانوا جميعاً أصدقاء لوالده الشيخ المنشاوي، وكان الشيخ رفعت يعتبره أستاذاً في التلاوة، وصاحب مدرسة فنية في التجويد.

وظل الرجل حتى مات وفيّاً لعهد فلا يقرأ خارج حدود مديريته، ولا يساوم على الأجر، ولا يتفق عليه، مرةً واحدةً فقط هجر إقليمه وجاء إلى القاهرة ليقراً القرآن ثلاثة أيام متتالية، حدث ذلك في عام ١٩٤٩م. وفي مأتم الشيخ محمد رفعت، ولكن الظروف أجبرته مرةً أخرى على زيارة القاهرة عندما أقنعه المذيع اللامع فهمي عمر وبلدياته بالحضور إلى القاهرة لإجراء اختبار لصوته في الميكروفون.

وحضر فعلاً للقاهرة، وقام الفنئون باختبار صوت الشيخ، ولكن النتيجة للأسف الشديد كانت بالسلب، وليست بالإيجاب؛ لأن الأصوات لسوء الحظ كالوجوه، وبعض الوجوه الجميلة لا تصلح للتصوير، وأيضاً بعض الأصوات الجميلة لا تصلح للميكروفون، والعكس أيضاً صحيح.

ومن سوء حظنا أن الشيخ صديق المنشاوي الكبير كان صوته من هذا النوع. وفي عام ١٩٣٧م اكتشف مفتش بيطري بتفتيش بهتيم صوتاً جديداً يرتل القرآن في نغم رتيب حبيب، يشبه إلى حدٍ كبير صوت المرحوم محمد رفعت، وكان صاحب الصوت الجديد هو الشيخ كامل يوسف البهيمي. وفي عام ١٩٣٨م قدّم الدكتور والأستاذ الجامعي أمين زاهر الشيخ كامل إلى الأستاذ محمد فتحي الإذاعي المعروف.

وفي اليوم التالي كان الشيخ كامل يذيع من محطة القاهرة، وبأجر قدره ٥٠ قرشاً عن كل إذاعة ... وعندما قامت الحرب قفز أجر الشيخ إلى خمسة جنيهات ثم إلى عشرة ... ثم إلى خمسة عشر.

وفي عام ١٩٤٤م سافر الشيخ إلى فلسطين ليذيع من محطة الشرق الأدنى، وبأجر خمسمائة جنيه في شهر رمضان ... وفي العام الذي يليه — ١٩٤٥م — سافر الشيخ كامل إلى السودان ليقراً القرآن في النادي المصري بالخرطوم طوال شهر رمضان وبأجر خمسمائة جنيه أيضاً، وعندما جاء عام ١٩٤٧م، كان الشيخ كامل يذيع من محطات لندن وسوريا ودلهي والشرق الأدنى، وبأجر قدره جنيه مصري واحد لكن عن كل دقيقة.

ولقد نشأ الشيخ كامل وعاش طفولته الأولى في بهتيم ... ثم نزح إلى القاهرة ليتعلم القرآن في مدرسة عثمان باشا ماهر بالقلعة ... ثم دخل الأزهر، وقضى فيه فترة قصيرة

قبل أن يفصلوه، وكان سبب الفصل هو كثرة تغيب الشيخ كامل عن حضور الدرس ... فقد كان الشيخ يظل طوال الليل يطوف حول السراقات التي يقرأ فيها الشيخ محمد رفعت، والشيخ علي محمود وغيرهما من العمالقة، وكان الشيخ كامل لا يعود إلى منزله إلا مع الفجر، وكان الشيخ رفعت هو أول العمالقة الذين تعرّف بهم الشيخ كامل، وظل الشيخ رفعت يخصّه بالعطف والحنان حتى مات.

لقد ظل الشيخ كامل يبكي كلما سمع صوت الشيخ رفعت، وكانت أحب الأصوات إليه هما صوتا الشيخ محمد سلامة، والشيخ مصطفى إسماعيل؛ فالشيخ مصطفى صاحب أجمل صوت بين القراء، والحادث الوحيد الذي لا ينساه حدث له في فلسطين في عام ١٩٤٤م؛ حيث حاصرته جماعة من الجنود الإنجليز السكارى وطلبوا منه أن يقرأ لهم ظناً منهم أنه يغني ... واضطرّ الشيخ إلى أن يغني لهم أكثر من ساعة، وهم يتمايلون من النشوة والسرور، قبل أن يتركوه.

والشيخ كامل تُوُفي فجأة، قبل أن يصل إلى سن الستين، وهو متزوج وله عدة أولاد، وكان من أمنياته أن يقرأ سورة الكهف يوم الجمعة في القدس الشريف، وأن يحصل على جميع تسجيلات المرحوم الشيخ محمد رفعت.

## مأساة الشيخ عمران

قبل أن يموت الشيخ علي محمود بليلة واحدة كان يقرأ ويُنشد التواشيح حتى الصباح، وكان يبدو عليه ليلتها أنه أقوى من أي وقت مضى، وكذلك الشيخ ندا؛ فقد ظل يقرأ حتى مات ... رجلٌ واحد فقط اعتزل التلاوة في قمة مجده عام ١٩٣٧م، هذا الرجل هو الشيخ منصور بدّار.

كان الشيخ بدار صديقاً لسعد زغلول، ومعظم رجال الوفد المصري عاش معهم تلك الأيام المجيدة الخالدة ... أيام ثورة ١٩١٩م، وكان في وداع سعد عندما ذهب إلى المنفى، وكان في استقباله عندما عاد ... ورأى الإنجليز يقتلون الناس في الطريق والوطنيين العُزل من السلاح يحاربون بأصابعهم، ويموتون وعلى أفواههم ابتسامة الرضا، وأراد الشيخ بدّار أن يشارك قومه. ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً سوى أن يقرأ ... وكان الأزهر مهد الثورة، وفيه يلتقي كل مساء أقطاب الوطنية وأشهر الخطباء وعشرات الألوف من الجماهير الغاضبة الثائرة، وكان الحفل يبدأ وينتهي بصوت الشيخ بدار ... ولذلك أُطلق عليه لقب «قارئ الثورة».

وقبل ثورة سنة ١٩١٩م، كان الشيخ بدّار يعيش في إسطنبول؛ فقد كان الخليفة العثماني يُحب اقتناء كل شيء نفيس ... فقرّر اقتناء الشيخ بدّار ... لكونه صاحب أجمل وأعذب وأحلى صوتٍ ظهر بين أصحاب أصوات — مطربين وقُراء — منذ بداية القرن الحالي حتى يومنا هذا، ويكفي أن الشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبد الباسط عبد الصمد يتبعان طريقته ... وريح الشيخ بدار كثيراً ... واقتنى لنفسه ضيعةً كبيرة في القليوبية، ثم فجأة اعتزل التلاوة — ولا أحد يدري لماذا — وكان ذلك في عام ١٩٣٧م ... مع أنه قبل ذلك بعشر سنوات ظل أسبوعاً كاملاً يقرأ في مأتم الزعيم سعد زغلول ... ولم يحضر بعد ذلك حفلات عامة إلا مرتين مرة عام ١٩٣٠م، في ذكرى وفاة سعد ... ومرة عام ١٩٣٦م في مأتم

الملك فؤاد ... وعاش الشيخ بدار حتى بلغ من العمر أرذله، ولزم ضيعته يتلو القرآن أحياناً لأصدقائه، ويسرد على مسامعهم تفاصيل الأحداث التي عاشها بين إسطنبول والقاهرة. سألت مرة الشيخ السعدني عن رأيه في أصوات القراء، فقال: رفعت مثل أبو ذر الغفاري، يمشي وحده ويموت وحده، ويُبعث وحده يوم القيامة، وصوت الشيخ بدار كالذهب المصهور، وصوت مصطفى إسماعيل كالذهب المسبوك، وكل قارئ، وله رائحة خاصة وطعمٌ مختلف، مثل حديقة الفاكهة، فيها كل شيء من البلح الزغلول إلى العنب البناتي، والمهم التوفيق وخدمة القرآن!

عاش الشيخ يوسف المنيلوي قبل الشيخ أحمد ندا، ومات بعده، وكان صديقاً حميماً للشيخ سلامة حجازي، وكامل الخلعي ... وكان يتحيز كثيراً للمرحوم داود حسني، ويعتقد أنه أعظم ملحنٍ ظهر في مصر، ومن هنا قامت العداوة بينه وبين الشيخ علي محمود، ومن هنا أيضاً جاءت المنافسة بين الرجلين.

وكان حظ الشيخ المنيلوي أضال من حظ منافسه الشيخ علي محمود، ومن هنا أيضاً امتلأت نفس الرجل حسرة وضاق بالحياة، وكانت طريقته في التلاوة حزينة باكية، ولعله القارئ الوحيد الذي ظهر في مصر، وكان يستفسر رأي السامعين في صوته أثناء التلاوة، فكان يقرأ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ثم يدقق النظر في الجالسين حوله ويقول «إيه رأيك يا جدع؟» وترتفع صيحات الإعجاب من كل جانب، وكان الشيخ يُسر كثيراً لهذه الصيحات؛ فقد كان يرحمه الله يعاني مشاكل نفسية رهيبة، ربما كانت راجعة إلى ضالة حظه في الحياة، وكان يحز في نفسه أنه صديق لكل العظماء في عصره، فإذا مات قريباً لأحدهم لم يدعُ الشيخ المنيلوي إلا كصديق؛ فقد كانت طريقته في الأداء وما فيها من غرابة تُبعد بينه وبين إحياء الليالي الضخمة.

ورغم ذلك فقد ربح الشيخ المنيلوي كثيراً، وتتلذذ عليه كثير من مشاهير القراء منهم الشيخ عبد العظيم زاهر والشيخ أحمد سليمان السعدني، وكان في حياته يتعصب للشيخ رفعت، ويرفعه فوق كل القراء، وكانت عداوته للشيخ علي محمود من أسباب هذا التعصب الشديد.

حدث مرة أن كان الشيخ يوسف يقرأ مع الشيخ رفعت في ليلة واحدة، وعلى غير عادة القراء كان الشيخ المنيلوي يقفز فرحاً من فوق الأريكة، كلما تلا الشيخ رفعت آية من الآيات، وعندما انتهى الشيخ رفعت كان الشيخ المنيلوي قد انخرط في نوبة حادة من البكاء، ورفض أن يقرأ ليلتها، وأصر على أن يواصل الشيخ رفعت التلاوة حتى الصباح.

وقبل أن يموت اعتزل الشيخ يوسف المنيلوي التلاوة؛ إذ لم تُعد صحته تساعد على السهر الطويل، وعاد الصفاء بينه وبين الشيخ علي محمود، وكان الشيخ علي أول من قرأ في مأتم الشيخ يوسف وكان أول من شيع جنازته، وكان الشيخ يوسف أول قارئ يُقام له حفل تأبين يشترك فيه كل قراء القرآن. ولم يُحتفل بتأبين أحد بعد ذلك إلا الشيخ رفعت ... ثم مضت أعوامٌ طويلة ... ومات الشيخ علي محمود والشيخ محمد رفعت ... ونسي الناس الشيخ المنيلوي ... فقد مات دون أن يترك خلفه تسجيلًا يُذكر الناس بصوته الباكي الحزين الذي وصفه الشيخ البشري فقال:

كان صوته شجياً فيه حزن، وفيه توجعٌ، وفيه شجن.

وأتساءل الآن: لماذا لم نستمع ولو لمرة واحدة في رمضان لصوت العبقري العظيم الشيخ علي محمود، أعظم من رفع الأذان في تاريخ الإسلام بعد سيدنا بلال مؤذن الرسول؟ ولماذا لا يذيع التليفزيون فترة نصف ساعة على الأقل من القرآن الكريم قبل آذان المغرب في رمضان كما جرت العادة من قبل، وبشرط أن يقدم لنا الأجود والأفضل من الموتى والأحياء على حد السواء، بدلاً من تقديم أصوات تشم منها رائحة الفلوس المدفوعة ثمناً للوصول إلى الكاميرا؟

وأرجو أن نأخذ المسألة مأخذ الجد هذا العام، فنعهد إلى لجنة محترمة لاختيار الأصوات التي نقدمها للناس في فترة الفجر، بعد أن كثُر اللغط حول الوسائل المتبعة للوصول إلى إذاعة الفجر في ليالي رمضان، وهي وسائل تعتمد على تطبيق المثل الشعبي القائل: «الي يدفع القرش ابنه يزمر» ونفس الشيء ينطبق على منشي التواشيح، الذين يقدمون التراتيل والتسابيح في نفس البرنامج التليفزيوني.

وألفت أنظاركم قبل فوات الأوان، إلى المنشد القزم الضريع الذي يصلح مهرجاً في سيرك، أو يصلح منشداً خلف ميكروفون الإذاعة ولكن ليس أمام عدسات التليفزيون؛ لأن في منظره وطريقة أدائه ما يمس هذه المهنة العظيمة، التي احترفها يوماً ما العبقري الشيخ علي محمود والعبقري الشيخ زكريا أحمد والمنشد الكبير الشيخ طه الفشني والشيخ الفيومي والشيخ الطوخي والشيخ عبد السميع بيومي والشيخ النقشبندي والشيخ محمد عمران.

أما قصة الشيخ عمران فهي مأساة بكل المقاييس؛ فلم يظهر منذ فترة طويلة في مجال التواشيح الدينية والمدائح النبوية صوتٌ على هذا المستوى ولا موهبة من هذا الطراز، كان الشيخ محمد عمران أحد السائرين على درب الشيخ علي محمود، وأحد الذين جددوا

شباب هذا الكار بعد أن تدرج عدة درجاتٍ على يد الشيخ نصر الدين طوبار ومدرسته، التي أعادت فن التواشيح إلى حلقة الدراويش والمجازيب، ومع ذلك لم نشعر كثيراً بوجود الشيخ محمد عمران بيننا؛ لأنه كان سلعةً جيدة ظهرت في سوق المناخ؛ حيث الشركات كلها مضروبة والأسهم كلها مطعون فيها، وحيث عملية البيع والشراء هي عملية خداع لا أكثر ولا أقل، وشيلني وأشيك، وترعاني بسهم أرايك سهمين.

لم يظهر الشيخ عمران في رمضان الماضي سوى مرة واحدة بينما استعانوا بالشيخ القزم ثلاث مرات، ويبدو أنه كريم وسخي وإيده فرطة ومن النوع الذي يحب الخير لنفسه وللآخرين!

المأساة أنني سمعتُ بوفاة الشيخ عمران بعد وفاته بعدة أشهر، والغريب أنني سألتُ أصدق أصدقائه — جلال معوض — عن نبأ وفاة الشيخ، فأبدى دهشةً شديدة؛ لأنه لم يقرأ نبأ وفاته في أي مكان، ولا جريدة مصرية اهتمت بنشر الخبر، حتى التلفزيون الذي يحرص دائماً على إذاعة نبأ وفاة سنية بحبح أو علي شقوير، لم يهتم بالتنويه عن وفاة الشيخ في أحد برامجه الدينية، وما أكثرها هذه الأيام! وبعد ذلك يتساءل البعض عن السر في عدم ظهور أصواتٍ جديدة واعدة. إنها الفوضى الموجودة على الساحة، وعدم وجود الميزان الذي يزن الأمور بالعدل؛ فقارئ مثل الطبلاوي مثلاً لا يظهر في التلفزيون إلا مرة كل عام. بينما يظهر القارئ القتلاوي مرة كل يوم. والسبب أن الطبلاوي صاحب صوتٍ جميل وطريقةٍ جديدة في الأداء، ولكنه عديم المفهومية ولا يؤمن بمبدأ يا بخت من نفع واستنفع.

وهناك احتمالٌ آخر هو أن يكون المشرف على عملية اختيار الأصوات في أجهزة الإعلام من النوع الذي لا يفرق بين صوت الكروان وصوت الغراب.

كما أن أذواق الناس اختلفت الآن؛ فلم يعد أحدٌ يفرق بين صوت الشيخ همام وصوت الشيخ علام، وأصبح أحمد مثل الحاج أحمد!

ولذلك انقطعت الصلة بين يومنا هذا وتلك الأيام القديمة العظيمة الطيبة، الأيام التي تردّد في أجوائها أصوات الشيخ أحمد ندا والشيخ علي محمود والشيخ القهاوي والشيخ الفيشاوي والشيخ أحمد سليمان السعدني والشيخ محمد رفعت والشيخ الشعشاعي والشيخ محمد سلامة والشيخ عبد العظيم زاهر والشيخ شعيشع والشيخ منصور ندا والشيخ محمد الصيفي، وأخيراً الشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبد الباسط عبد الصمد رحمة الله عليهم جميعاً، ونسأله — سبحانه وتعالى — أن يرحم أسماعنا من أصوات الشيخ

مأساة الشيخ عمران

منقار والشيخ ملقاط والشيخ حلبص والشيخ بجبح، وكل المشايخ في هذا العصر الزاهر الميمون، عصر عايشة الوعد وسميرة سعيد وأصالة ولطيفة وأنوشكا والمطربة سيمون!



## العبقري الأول والعبقري الأخير

قبل ظهور الشيخ أحمد ندا كانت قراءة القرآن هي مهنة مَنْ لا مهنة لهم ... شخصُ حفظ بعض آيات القرآن باجتهاده الشخصي أو عن طريق الكتاتيب التي كانت منتشرة في تلك الأيام، أو طالب لم يوفّق في دراسته في المرحلة الابتدائية ... أو رجلٌ أعمى لم يجد وسيلة للرزق إلا قراءة بعض الآيات في مقابر الفقراء.

وكان الأجر عَشْوَةٌ في الغالب، وأحياناً قرش صاغ، ولكن هذا القرش صاغ كان يكفي لإعاشة شخص لمدة يوم كامل، وكان إلى جانب هؤلاء بعض المشايخ الذين يُنشدون التواشيح، وكانوا معروفين عند العامة بأولاد الليل، وكان عملهم مقصوراً على إنشاد بعض القصائد القديمة، وكان أشهرها على الإطلاق «إذا جاء يوم العرض والعرش واللقا» وكانت أصوات المنشدين في هذه الفرق تشبه الصوت الناتج عن خشب يحترق، أو الصوت الذي يُحدثه احتكاك عجلات قطار بالقضبان عند أحد المنحنيات، ولم يكن لهذه الفئة أجرٌ معلوم، ولكن الأمر كان يتوقف على شهامة صاحب الدار.

وفجأة ظهر شيخٌ أسمر اللون، نحيف العود، وسيم القسمات، يقرأ القرآن بشكل جميل وبطريقة مبتكرة، طريقة تُجبر السامعين على الجلوس في أماكنهم ساعاتٍ طويلة، وكما أثار الصوت الجديد على عقول ومشاعر المستمعين، فقد أحدث ثورةً عارمة بين بعض المشايخ، وكان محور الثورة الذي يدور حوله النقاش والخلاف هو: هل الطريقة المبتكرة في التلاوة، وبهذا الصوت الجميل حلال أم حرام؟

وترك الشيخ أحمد ندا أصحاب السؤال يتناقشون، ومضى في طريقه يحقق كل يوم انتصاراً باهراً، ويجمع في كل يوم المزيد من المريدين والأنصار! وهكذا قلب الشيخ العبقري أحمد ندا الموازين كلها، ووصل أجره إلى خمسة جنيهاً عن الليلة الواحدة، وجاب أقاليم مصر كلها يسهر في قصور البشوات ودُور العُمد والأعيان، ويُهرع لسماعه الألوف الذين

يُعجبون بصوته، ومرةً أخرى ارتفع أجر الشيخ إلى عشرة ثم إلى عشرين ثم إلى أربعين جنيهاً.

وظل يرتفع أجره بعد ذلك إلى أن بلغ مائة جنية عن الليلة الواحدة، وأصبح للشيخ ندا حنطور تجرّه ستة خيول، وقصّر يؤمه الشعراء والأدباء ورجال الحكم والسياسة، وأصبحت ندوة الشيخ أحمد ندا هي الشعلة الوحيدة المضيئة وسط الظلام الرهيب الذي كان يومئذٍ يُخيم على مصر.

ولم يدرك الشيخ ندا أنه بمسلكه هذا يشعل النار في قلب الخديو الجالس على العرش، فكيف يجرو رجل مصري من طبقة فقيرة ومعمم على الظهور في موكب ولا موكب الخديو ولأن الهيافة ليس لها حدود، فقد أصدر الخديو «فرماناً» بأن يكتفي الشيخ أحمد ندا بزوج واحد من الخيول يجرّ عربته الفيتون، وتُصادر العربّة والأحصنة إذا أصرّ الشيخ على الظهور في نفس الموكب، وأثر الشيخ أحمد ندا أن يتحاشى حماقة الخديو فاكتفى بحصانين اثنين لجر عربته، ولكن بقدر نقص أحسنه ازدادت شعبيته، وصار واحداً من أعلام مصر الخفاقة، ونجماً من نجوم المجتمع المصري الذي يتردد على صالونه زبدة أهل مصر، ويقف على بابهِ أصحاب الحاجات، وكان الرجل كريماً ينفق على سعة، ويوزع النفحات والصدقات، وكان أجره قد وصل إلى مائة جنية ذهباً عن كل ليلة، وكان يحلو له أحياناً نثر الجنيهاً الذهبية تحت أقدام أحفاده.

كان الشيخ أحمد ندا من أوائل الذين التفتوا إلى موهبة ست الكل أم كلثوم، كان يطرب لصوتها ويُقبل على سماعها في أي وقت، وكانت هي الأخرى تحب سماعه وتطرب لطريقته الفذة في الأداء، وقد أحييت أم كلثوم حفل زواج ابنه محمود ندا، ورفضت أن تتقاضى أي أجر، ولسوء الحظ أن الشيخ أحمد ندا رفض بشدة تسجيل القرآن على أسطوانات لا يليق أن تحمل كلام الله لأن الناس تتداولها وتحملها بأيدي قذرة وتلقي بها أحياناً على الأرض ... ولو سجل الشيخ بصوته العظيم بعض سور القرآن الكريم لكسبنا الآن ثروة فنية عظيمة بلا جدال — رحمة الله عليه.

هذا الفتى الأسمر النحيل الوسيم الذي كان أول نجم يتلأأ في دولة التلاوة في عصرنا الحديث ابن حارة التلول الذي خرج من معطفه كل النجوم الزاهرة التي أضاءت دولة التلاوة بنورها، وللعلم إن الشيخ أحمد ندا هو جد الفنانة شريفة فاضل والفنانة سناء ندا. وإذا كنا قد تعرضنا لنجوم دولة التلاوة الذين ظهروا في نهاية القرن الماضي وعلى طول القرن العشرين فيجدر بنا أن نفتح ملف حضرات أصحاب الفضيلة مشايخ هذا

الزمان الذين يحترفون التلاوة، وبعضهم يتقاضى في ليلة واحدة أضعاف ما حصل عليه العبقري محمد رفعت في حياته كلها، ومع ذلك فليس بين الموجودين الآن إلا قارئ واحد تستطيع أن تضعه في مصافِّ العباقرة، وإلى جانبه يوجد بعض الموهوبين، ثم لا شيء بعد ذلك سوى أصواتٍ نحاسية وطرق أداء من نوع الهردبكش ثم مقلدين والتقليد هو نوع من التزييف.

وهؤلاء المزييفون لا يقل ضررهم عن ضرر اللحمة الفاسدة المستوردة، أو ضرر الشاي المخلوط ببرادة الحديد، العبقري الوحيد الموجود على الساحة الآن هو الشيخ محمود الطبلابي وهي عبقرية لا دخل له فيها لأن الصوت موهبة من عند الله، وقد وهبه الله أحياناً صوتية ليس لها نظير وصفها العبقري محمد عبد الوهاب بأنها معجزة؛ لأنها تؤدي النغمة المستحيلة، وقد سبق للعبد لله نشر هذا الكلام وعلى أوسع نطاق في حياة العبقري الراحل عبد الوهاب، وعبد الوهاب سميع قرآن نادر المثال، وعندما يقول عبد الوهاب مثل هذا الكلام فلا بد أن نصدقه.

ولكن لأن الشيخ الطبلابي ليس فيه كرم أحمد ندا ولا تقوى الشيخ رفعت ولا طيبة مصطفى إسماعيل، ولا كياسة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد؛ لذلك حاربه الجميع، وعقدوا حلفاً ضده.

هل تصدقون أن أعظم قارئ، يعيش بيننا اليوم، موجود احتياطي في التصنيف الذي وضعه عباقرة التليفزيون المصري؟!

إن هؤلاء القتلة أشبه بمدرب كورة حمار أو صاحب غرض يضع محمود الخطيب على الدكة احتياطياً ويضع على رأس التشكيل الكابتن حكشة والكابتن أبو سريع! لأن الكابتن حكشة إيدته فرطة، ولأن الكابتن حكشة الي في جيبه مش له!

هل تعلمون أن التليفزيون لا ينقل صلاة الجمعة من جامع الأزهر بسبب وجود الشيخ الطبلابي قارئ السورة ... تصوروا! إنها مأساة صدقوني أن يُترك مثل هذا الأمر لبعض الجهلة أو بعض الأدعياء، فيحجبوا عنا أصحاب الأصوات الندية ويسلطوا علينا أصحاب الأصوات الخشبية، لا لسببٍ إلا لسببٍ واحد ... الي ما معهوش ما يلزموش!

والشيخ الطبلابي بدأ حياته موظفاً في شركة ماتوسيان للدخان بالجيزة، وكانت وظيفته هي قراءة القرآن ورفع الأذان في مسجد الشركة، وسرعان ما اشتهر أمره في ربوع محافظة الجيزة، ولكنه لم يُحقق الشهرة التي يستحقها لأنه عجز عن الوصول إلى أجهزة الأعلام؛ لأن الطريق إليها غير سالكة وغير مأمونة، وتحتاج إلى بهلوانات تُجيد عملية القفز واللف والدوران، وهي أشياء لا يجيدها الشيخ الطبلابي.

كان السبب في شهرته تلك التسجيلات التي سجلتها له شركة منتصر، التي كان يتولى الاشراف الفني عليها المرحوم الفنان مأمون الشناوي، الذي صرخ عند سماعه صوت الشيخ: هذا الشيخ سيكون هو قارئ الزمن الآتي! وأدت هذه الأسطوانات إلى انفجار شهرة الشيخ كالبركان، وكانت السبب في وصوله إلى أجهزة الإعلام في مصر وخارجها.

وأذكر أنني لم أستمع إليه في مصر في بداية أمره، والذي لفت نظري إليه هو الأستاذ الشاعر العراقي الكبير حميد سعيد الذي طلبني ليعرف رأيي في صوته. ولما أبدتُ جهلي به اندهش كثيراً وقال معلقاً: عندما أسمعهُ أنفجر باكياً، وأضاف: إن صوته يحمل هموم وأحزان كل العرب القدامى والمحدثين، وبعدها قررتُ أن أستمع إليه، وجاءني صوته في الصباح الباكر عبر إذاعة الكويت، ولم أبكِ كما فعل حميد سعيد، ولكنني تأكدتُ أن مصر ولادة، وأنها رغم المحنة وغدر الزمان قادرة على العطاء.

هذا صوتٌ يذكرك بالعابرة الأوائل، منصور بدار، وعلي محمود، ومحمد رفعت، والشعشاعي، ومصطفى إسماعيل، وعبد الباسط عبد الصمد، إنه حبة من السبحة العظيمة، وهو لمبة في الثريا البهية التي تجمع كل هؤلاء، ويا ألف خسارة لأن العد التنازلي بدأ بالنسبة له؛ فهو الآن في الثانية والستين ومرض السكر بدأ يداعبه، ولكنه بالرغم من ذلك لا يزال الأوحـد في دنيا التلاوة، ونرجو أن يتدخل رئيس الوزراء لدى عباقرة التليفزيون لعلهم يفكّون الحصار الذي ضربوه حول الشيخ على أساس أن الصوت النادر ملكية عامة ومشاعٌ لكل المصريين، ومَن يحبُّه عنهم يكون قد أتى أمراً من شأنه الإضرار بمجموع الشعب المصري، ويستحق العقاب الشديد!

## مأساة الشيخ عنتر

إذا كان صوت الشيخ الطبلابي هو الصوت العبقري الوحيد في دولة التلاوة، فهناك أصواتٌ كثيرة موهوبة في مقدمتها صوت الشيخ مصطفى غلوش. ولقد أخطأ الشيخ غلوش في بداية حياته عندما نقل طريقة الشيخ مصطفى إسماعيل نقل مسطرة، وبالطبع كان الميزان في صالح الشيخ مصطفى إسماعيل، ثم أدرك الشيخ غلوش بعد سنواتٍ طويلة أنه أخطأ الطريق، ولكنه نجح في الانفصال عن جاذبية الشيخ مصطفى إسماعيل، وأصبح له مدارٌ خاص به، فصار واحدًا من القراء الذين يُشار إليهم بالبنان في بلاط دولة التلاوة.

ولعل الشيخ مصطفى إسماعيل هو القارئ العبقري الوحيد الذي قلده ٩٠٪ من قراء القرآن الكريم الذين جاءوا من بعده، والسبب أنه الوحيد أيضًا الذي يؤدي السهل الممتنع، شأنه في ذلك شأن بيرم التونسي في الشعر العامي، وشأن سيد درويش في الموسيقى، وشأن محمد التابعي في الكتابة الصحفية.

وإذا كان التقليد مغفورًا للموهومين من أشباه الفنانين، فهو أمر لا يغتفر بالنسبة لأصحاب المواهب، ولا شك أن الشيخ غلوش واحدٌ منهم، ويأتي بعد الشيخ غلوش الشيخ أحمد الرزقي، ويتمتع بصوتٍ موهوب وله شخصية، ولكنه للأسف الشديد ارتكب نفس الخطأ الذي وقع فيه الشيخ غلوش؛ فقد بدأ حياته بالسير على طريق الشيخ محمد صديق المنشاوي، وبالرغم من أن التقليد كان واضحًا ومعيبًا إلا أن الشيخ عبد الباسط عبد الصمد تحمَّس له كثيرًا، ورشَّحه كأعظم قارئ بعد جيل العمالة، ولم يكن هذا صحيحًا على الإطلاق، ولكنه كان موقفًا تكتيكيًا من الشيخ عبد الباسط عبد الصمد فرضته ظروف المنافسة وقواعد السوق.

وكما حدث في عالم الأدب عندما رشَّح الدكتور يوسف إدريس الكاتب أحمد برعي خليفة له في مجال القصة القصيرة، وكما رشح حسين شفيق المصري الزجال أبو بثرينة

أميراً للزجالين مع أن بيرم التونسي كان حياً يُرزق. ولكنه كان منفياً خارج مصر ومطارداً كالكلب المسعور، ولكنه الخوف أحياناً والاسترزاق أحياناً، والطمع أغلب الأحيان. ولم يلمع الشيخ الرزيقي إلا بعد أن تمكّن من الإفلات خارج المجال الجوي للشيخ محمد صديق المنشاوي وصارت له طريقته المستقلة، التي يتبعها في الوقت الحاضر.

ويأتي بعد هؤلاء الشيخ علي حجاج السويسي والشيخ عبد العاطي ناصف وإن كنتُ لم أسمع الشيخ السويسي إلا منذ سنواتٍ قليلة مع أنه تجاوز السبعين من عمره المديد، وهي مسألة غريبة للغاية، ولا أعرف السر في احتجاب الشيخ كل هذا الوقت الذي مضى، ولكنه دليل على أن المواهب الجيدة قد تختفي في ظلال العبقرية العظيمة.

هناك أيضاً من الجيل الصاعد قارئ شاب اسمه السروجي على ما أعتقد، وهو من منيا القمح، وقد استمعتُ إليه في ذكرى المرحوم وجيه أباطة، وفي اعتقادي أنه يستطيع أن يشق طريقه إلى الصفوف الأمامية لو ابتعد عن الصباح الشديد، ولو تدرج بصوته من القرار إلى الجواب إلى جواب الجواب بطريقة مدروسة؛ لأن الملاحظ أنه يبدأ وينتهي في طبقة واحدة وهي جواب الجواب، وهناك مئات من القراء على الساحة اليوم ولكنهم للأسف الشديد من طبقة «أحمد زي الحاج أحمد» ولا فضل لأحدهم على أحدٍ منهم إلا بالتقوى!

ولكن المأساة الحقيقية في هذا العصر هي مأساة الشيخ مسلم عنتر؛ فهو صاحب صوتٍ جميل للغاية، وله طريقةٌ فذة في الأداء، واستطاع أن يفرض نفسه بموهبته على إذاعات العالم الإسلامي والعالم العربي، وكان صوته مادةً ثابتة في برامج الإذاعة الإيرانية. وبالرغم من أن الشيخ عنتر نشأ وترعرع في مدينة شيخ العرب السيد البدوي، وهي المدينة التي خرج منها الشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ محمد مجد والشيخ شفيق أبو شهبه وعشرات آخرون من الموهوبين ... إلا أن الشيخ مسلم عنتر كان أشبه بنبئة غريبة، واستطاع بموهبته وحدها أن ينمو دون دراسة ودون معرفة بعلم القراءات، ودون أن يتدرب على يد شيخ يُلقنه أصول القراءة، كان صوته هو سلاحه الوحيد في المعركة، وهو سلاحٌ فعال بلا أدنى شك، ولكن الشيخ صاحب الصوت الجميل كان مجرداً من التروس والدروع، وهي أدواتٌ ضرورية إذا أراد المقاتل أن يواصل المعركة حتى النهاية.

هنا كانت مأساة الشيخ الذي تصوّر أن القراءة عمليةٌ اجتهدية لا تحتاج إلى ضوابط، وبالتأكيد لم يكن الشيخ مسلم عنتر يدرك أن دراسة علم القراءات ضرورية للقارئ.

وربما عرف من بعض محبيه أن رفعت كان يقرأ بالقراءات السبع، وأن القراءات السبع تعني أن يقرأ الآية الواحدة سبع مرات كل مرة بطريقة مختلفة. لم يعرف الشيخ

أن علم القراءات يسمح للقارئ بالتصُّرف، ولكن في حدود مفروضة، ولا يمكن تجاوزها أو الخروج عنها، منها — مثلاً — أن القارئ يستطيع قراءة الفاتحة على النحو الآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. «مالك» يوم الدين. وباستطاعته أيضاً أن يقرأها على النحو التالي: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم «ملك» يوم الدين. وعلى نفس الطريقة يمكن قراءة «الأرض» ويمكن قراءتها على نحو مختلف، على النحو التالي: «ولرُض» ولمن عقبى «الدار» يمكن أن تتحول إلى ولمن عقبى «الدير»، ولكن الشيخ مسلم عنتر تصور أن القارئ حر التصرف يستطيع أن يقول ما يريد وقت أن يشاء وبالطريقة التي تروق له.

استمعتُ إليه مرة يقرأ بصوت جميل للغاية هذه الآية: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ ونطق «إبراهيم» مرة نطقاً سليماً ... «إبراهيم» ثم أعادها «إبراهام» ثم أعادها «براهيم» ثم أعادها «برهوم» ... وهي قراءة خطأ بالطبع، وليس لها أية علاقة بعلم القراءات.

ولم يستمع العبد لله إلى صوت الشيخ إلا عند تواجدي خارج مصر في زمن الشتات والضياع، وعندما عدتُ إلى مصر اكتشفتُ أن الشيخ مُنع من القراءة وبقرارٍ من الأزهر، وبالطبع كان الأزهر على حق.

ولكن العبد لله كان يتمنى لو كان قرار الأزهر تبعه قرارٌ آخر بالعمل على تدريب الشيخ وتأهيله على يد أستاذٍ كبير تمهيداً لعودته مرةً أخرى إلى ساحة التلاوة ... ولكن الأزهر — للأسف الشديد — منع الشيخ من القراءة ولم يحاول أن يدلّه أو يساعده على سلوك الطريق المستقيم ... مع أن أشرطة الشيخ مسلم عنتر كانت تنافس أشرطة أحمد عدوية وحسن الأسمر في ريف مصر وفي أحيائها الشعبية، كان يمكن أن نكسب قارئاً عظيماً وصاحب موهبة فذة، ولكننا لم نفعل ذلك ولم نحاول، وأذكر أنني قمتُ بمحاولة وأرسلتُ إليه للحضور إلى القاهرة أو السماح للعبد لله بلقائه في طنطا، ولكن مرّت عشر سنواتٍ طويلة ولم أتلّق منه جواباً حتى الآن، ويبدو أن الضربة كانت شديدة على الشيخ فلم يحتملها، ويبدو أنه أثر الاختفاء بعيداً عن الأنظار مؤمناً بأن ما جرى له هو قضاء الله وقدره، ولعله لم يدرك حتى الآن أنه هو نفسه السبب في كل ما حل به!

وإذا كنا لم نتناول سيرة الشيخ أبو العينين شعيشع مع مجموعة المشايخ الذين يمارسون المهنة الآن، فالسبب أننا ذكرناه من قبل مع جيل العمالقة الذين ظهرُوا في بدايات القرن، ولأن الشيخ شعيشع — مد الله في عمره — كان زميلاً للشيخ الشعشاعي والشيخ

منصور الشامي الدمنهوري والشيخ محمود علي البنا، وظهر قبل الشيخ عبد الباسط عبد الصمد والشيخ محمد صديق المنشاوي، ولأن السن لها أحكام، فالشيخ شعيشع لا يمكن أن يخضع للمقارنة مع من يمارسون المهنة اليوم.

هناك أيضا بعض الخرافات التي يرددنها بعض المتحمسين أو بعض الهواة من المستمعين، والعبد لله يتلقى بين الحين والآخر خطابات من الزقازيق وطنطا وبنى سويف والمنيا وشبين الكوم والإسكندرية والمنصورة وبورسعيد، خطابات يرسلها بعض المستمعين الطبيين وكلّ منهم يقسم بأغلظ الأيمان أنه يوجد بمدينة قارئ «مظلوم» لو وافته الفرصة فسيصبح خليفة للشيخ محمد رفعت أو الشيخ مصطفى إسماعيل، وهذه الخطابات التي أتلّقاها هي غالباً من أقرباء الشيخ «المظلوم» أو من أصدقائه، أو من بعض أصحاب النوايا الطيبة الذين لا يفرقون بين صوت الشيخ محمد رفعت وصوت العبد لله، والذين ينطبق عليهم المثل القائل «كله عند العرب صابون» وأقول لهؤلاء جميعاً: كان يمكن أن تموت موهبة عظيمة لو ظهرت في بداية القرن وحتى منتصفه.

ولكن ومنذ السبعينيات من هذا القرن لم تعد هناك حُجة لصاحب موهبة في عدم الظهور.

فقد كانت المنطقة العربية كلها وعلى امتداد رقعتها ليس فيها صوتٌ مسموع إلا صوت إذاعة القاهرة، وصوت إذاعة الشرق الأدنى من حيفا، وصوت الإذاعة البريطانية في لندن.

وكانت الإذاعة المصرية يعلو صوتها في فترات قليلة من اليوم ... فترة صباحية ثم فترة بعد الظهر، ثم فترة مسائية وينتهي الإرسال في الحادية عشرة مساءً.

وكانت الإذاعة تبدأ برامجها بالقرآن الكريم وتختتمها بالقرآن الكريم، بالإضافة إلى فترة مدتها نصف ساعة، من الساعة الثامنة إلى الثامنة والنصف مساءً كل يوم، أما الآن فحدث ولا حرج ... إذاعة رأس الخيمة وإذاعة أم القوين وإذاعة الفجيرة وإذاعة الشارقة وإذاعة دبي وإذاعة أبو ظبي ... ست إذاعات رئيسية في دولة الإمارات بعضها له عشر شبكات، وإذاعة مسقط في دولة عُمان وإذاعة الدوحة من قطر وإذاعة البحرين وإذاعة الكويت. وفي السعودية شبكة إذاعية تغطي الكرة الأرضية كلها.

وفي العراق إذاعة بغداد وإذاعة صوت الجماهير الموجهة للعالم العربي.

وفي سوريا نفس الشيء ... وفي لبنان إذاعة رسمية وعشرون إذاعة أهلية ... وفي الأردن شبكة إذاعية قوية وإذاعة فلسطين، بالإضافة إلى عشرات الموجات من القاهرة. بالإضافة إلى الإذاعة المتخصصة وهي إذاعة القرآن الكريم.

ثم اذهب إلى المغرب العربي لتجد إذاعة ليبيا وإذاعة البحر الأبيض وإذاعة صوت الشعب والإذاعة العربية من مالطا، وقل نفس الشيء عن تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ... هذا عدا اليمن والسودان وإريتريا وجزر القمر والصومال، ثم عندك بعد ذلك إذاعات العالم الإسلامي، من إندونيسيا إلى البوسنة وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، ثم خذ عندك بعد ذلك البرنامج العربي في الإذاعة البريطانية وإذاعة مونت كارلو، وإذاعة الشرق من باريس أيضاً، والإذاعة العربية في هولندا، وخمس إذاعات عربية في الولايات المتحدة، وعشر إذاعات عربية في أمريكا اللاتينية. وإذاعة عربية قوية في أستراليا. وأستطيع أن أعد لك مائة إذاعة أخرى منها على سبيل المثال الإذاعة العربية من كالادونيا وهي جزيرة وسط المحيط الهادي، نُفي إليها الثوار الجزائريون بعد اجتياح فرنسا للجزائر.

بالإضافة إلى محطات التلفزيون التي بلغت ١٠٠ محطة في العالم العربي منها ٦ محطات في دبي وحدها و٤ في أبو ظبي ومحطة تلفزيون قوية في الشارقة، ثم هناك محطات الفضائية من أول محطات الشيخ صالح كامل إلى محطات الشيخ عبده كامل ومحطات الشيخ أحمد كامل إلى آخر عائلة كامل التي سيطرت على الموجات الفضائية، وهي الأخرى تذيع القرآن الكريم أحياناً وتستعين بأصوات تحتاج إلى بلاغ للشرطة لكي تنفذ المشاهدين من أصواتهم التي تشبه صوت ساقية خربانة.

ولك — عزيزي القارئ — أن تحسب كم عدد القراء اللازمين ملء كل هذه الساعات من الإرسال في الإذاعة والتلفزيون.

لا أقول كم عدد الأصوات الموهوبة التي تحتاجها كل هذه الموجات والشبكات في الكرة الأرضية؟

ولكني أقول كم عدد الأصوات نصف الموهوبة أو حتى ربع الموهوبة أو حتى خمس الموهوبة التي نحتاجها في الوقت الحاضر؟

العبد لله تعرّف على نصّاب مصري ظريف نصّب نفسه رئيساً للفلاحين بالعراق، ثم افتتح لنفسه محلاً للجزارة وفرض إتاوات على الفلاحين المصريين هناك، ولما طرده العراقيون هناك نتيجة الشكاوى المتعددة في حقه اضطرّ إلى النزوح إلى الكويت، وبعد فترة شاهدته على شاشة التلفزيون الكويتي يؤدي التواشيح الدينية ويرتدي زي المشايخ ويغطي قبح صوته وعدم إلمامه بأبسط قواعد هذا الفن بالبكاء الشديد.

وأغرب شيء هو أن بعض المُسنّين من أهل الكويت كانوا ييكون معه ظناً منهم أنه يبكي من شدة الورع والتقوى!

وإذا كان النصاب الظريف قد وصل إلى أحد أجهزة التلفزيون فهل يمكن أن تكون موهبةً عظيمة موجودة بيننا ثم لا يُسمح لها بالظهور؟  
العبد لله يقول لأي طيب أو ساذج أو موهوم دُلني على واحدٍ شبه موهوب، وأنا أضمن له الشهرة والمجد والرزق الحلال الوفير، هذه هي الحقيقة ... أيها السادة: لقد أصاب البوار حقل المواهب في هذا المجال الذي كان خصباً في الماضي وكنا نشكو من وفرة إنتاجه، ثم أصبحنا نشكو الآن من خرابه، ومن انتشار البوم والغربان.  
ونسأل الله الستر والصبر والقدرة على احتمال بعض الأصوات التي تُفرض علينا الآن لأسباب بعضها مجهول وبعضها معروف للجميع.  
واللهم عفوك ورضاك يا رب.

## التفاح والتين الشوكي!

في هذا الفصل نذكر المشايخ الذين رَتَّلوا كتاب الله في العصر الحديث، من أول الشيخ أحمد ندا، إلى الشيخ فؤاد محبوب، آخر طبقة ظهرت في دولة التلاوة، وإذا كنا قد تعرَّضنا للعباقرة والموهوبين فسيكون حديثنا هنا عن المقلِّدين، وعندما يغيب العباقرة والموهوبون يحتل المقلدون مكان الصدارة، وأبرز مثالٍ على هؤلاء الدكتور نعينع، إنه صورة طبق الأصل من الشيخ مصطفى إسماعيل ولكن ما أبعد الفرق بين الصورة والأصل!

وإذا كان صوت مصطفى إسماعيل من معدن الذهب الرنان، فصوت الشيخ نعينع من معدن الألومنيوم، ولكن بسبب غياب العباقرة — وعدم وجود سمعية من بتوع زمان — احتل الدكتور نعينع مكان الصدارة، وأصبح القارئ الرسمي للدولة، مع أنه يأتي في الترتيب بعد عشرات من الأحياء؛ فالشيخ محمد بدر حسين يفضلهُ بالتأكيد، ولكن لأنه الدكتور ولأنه يرتدي البدلة أصبح أثيرًا لدى المصالح الحكومية، على أساس أن لقب الدكتور أصبح في الزمن الحاضر زينة ... ويخلق ما لا تعلمون، وعلى الرغم من التكريم الحكومي والحفاوة الرسمية، إلا أنك ستُجهد نفسك لاكتشاف شخصية القارئ إذا فتحتَ الراديو فجأة وكان الدكتور نعينع هو القارئ، فستظن في البداية أنك تستمع إلى الشيخ مصطفى إسماعيل، وفي الآية التالية سيخيل إليك أنك تستمع إلى الشيخ طه الفشنى، ولن تستطيع اكتشاف الاسم الحقيقي إلا إذا انتهت التلاوة وأعلن المذيع اسم القارئ.

والسبب أن التقليد لا يضع بصمة ولا يترك أثرًا؛ ولذلك سيدوخ دوخة الأرملة كلُّ من يحاول أن يميز الفروق بين فلان وعلان من السادة الذين يحترفون التلاوة هذه الأيام؛ لأن كل الأصوات الجديدة نُسخ مكررة، وأصحابها مقلدون وليس لهم سككٌ مختلفة، ولكنهم جاءوا جميعًا من طريق واحد وساروا على درب واحد.

وزمان ... كان لكل صوت سمة خاصة وملامح مميزة وكل قارئ كان له لون وله طعم، وكانوا مثل الأشجار المثمرة في جنة فواكه، فإذا كان صوت الشيخ محمد رفعت هو التفاح، فالشيخ مصطفى إسماعيل هو العنب البناتي، والشيخ عبد الفتاح الشعشاعي هو الرمان، والشيخ عبد الباسط عبد الصمد هو الخوخ، والشيخ الحصري هو الجوافة، والشيخ المنشاوي هو البلح الزغلول، والشيخ عبد العظيم زاهر هو الكمثرى، والشيخ محمود علي البنا هو البطيخ الشلين، والشيخ محمد صديق المنشاوي هو التين البرشومي، والشيخ محمود عبد الحكم هو الموز المغربي.

تعالوا الآن نتشمم رائحة الموجودين على الساحة، فسند أنهم جميعاً لهم رائحة النبق والدوم والجميز والتين الشوكي، بعضهم بدأ بداية طيبة مثل الشيخ عبد الواحد زكي، ثم أصابته العدوى فأصبح كالأخرين، وسار على درب الشيخ هاشم هيبه، وهو اختيار غريب للغاية؛ لأن الشيخ هاشم هيبه نفسه ليس من الطبقة الأولى في دولة القراء، ولأن التقليد صار هو الأصل الآن، فستجد أن دولة التلاوة انقسمت إلى قبائل وإلى عشائر، هناك عشرة قراء على الأقل يقلدون الشيخ الطبلواوي منهم القارئ فؤاد محبوب، والقارئ نجيب شحاتة، والقارئ أسامة أبو النور، والقارئ شريف محمد، والقارئ عبد الحليم دراز.

وهناك عشرة قراء على الأقل يقلدون الشيخ محمد صديق المنشاوي، أشهرهم هو صلاح شمس الدين ومحمود أبو الوفا الصعيدي، وهناك أكثر من عشرة قراء يقلدون الشيخ مصطفى إسماعيل، أشهرهم طبعاً الدكتور نعينع والشيخ فتحي المليجي، وهناك الكثيرون يقلدون الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، أشهرهم الشيخ محمد البحيري، وهناك الشيخ صلاح يوسف الذي يقلد الشيخ عبد العزيز علي فرج، وهناك المبتهل الشاب الشيخ البساتيني الذي يحاول السير على طريق الشيخ النقشبندي.

وكنت أتمنى أن يمنحني الله القوة والصحة لكي أتتبع وأتعب كل السادة الذين يحترفون هذه المهنة في الوقت الحاضر، ولكنني اكتشفت أنني لا أستطيع القيام بهذه المهمة بعد أن وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، ولم تعد أعصابي تحتمل كل هذه الأصوات النحاسية التي أصابت أذني الوسطى، فصرت أترنح أحياناً وأسقط على الأرض أحياناً كلما استمعت إلى صوت من هذه الأصوات التي ينطبق عليها ذلك الهاتف الشهير لعمدة الفن المصري مولانا يوسف بك وهبي، الذي كان يهتف به في المواقف الصعبة وفي الحالات الحرجة، وهو هتاف: يا للهول!

وقد يسأل سائل ... وما العمل؟ هل نسكت؟ هل نياس؟ هل نصبر على ما ابتلنا به الأيام؟ وأجيب ... لا، لا نسكت ولا نياس، ولكن هناك حلولاً كثيرة أهمها تعديل النظام

المعمول به في اختيار الأصوات الجديدة في الإذاعة والتلفزيون، وأول إجراء يجب اتخاذه هو إلغاء لجنة الاستماع المكونة من فضيلة الشيخ برانق والشيخ حبة وغيرهما، وأن نضم إلى لجنة الاستماع إلى جانب أصحاب الفضيلة المشايخ بعض السادة الذي نثق في حسن استماعهم وفي عدالة أحكامهم. وأرشح لهذه المهمة الشيخ أبو العينين شعيشع؛ فهو من الرائحة الزكية القديمة، وهو خبير في علوم وفنون القراءات، وهو الذي حكم منذ سنوات بإفلاس دولة التلاوة من الأصوات الجديدة الجميلة. وأرشح أيضًا سميحًا قديمًا وعظيمًا وخبيرًا وأستاذًا في فن الموسيقى والألحان والمقامات، وهو الناقد الفني الكبير الأستاذ كمال النجمي، والعبد لله واثق من أن أية لجنة تضم مثل هؤلاء الثلاثة ستكون قادرة على اختيار الأفضل والأحسن، وبشرط أن يُعرض عليها كل الأصوات التي تُذاع الآن في الإذاعة والتلفزيون.

وهناك اقتراح آخر أرجو أن يبحثه الوزير صفوت الشريف؛ لأنه كفيلاً برفع مستوى الغناء والموسيقى والإنشاد الديني، وحتى التلاوة بأن يُستثنى شرط سن المعاش بالنسبة لمن يتولى منصب مدير الاستماع في الإذاعة؛ لأن الأمور أخذت طريقها إلى الانحدار بعد محمد حسن الشجاعى ومدحت عاصم. ولا بد أن نعهد بهذه المهمة إلى خبير حقيقي وليس إلى موظف حكومي بدرجة مدير، وأرشح لهذه المهمة في الوقت الحاضر المؤرخ والناقد الموسيقي العظيم محمود كامل.

إن مصر تستحق أن تكون موسيقاها أرفع مما هي عليه الآن، وأن تكون فنونها كلها أروع مما هي عليه الآن، وعيب أن ينحدر فن التلاوة عندنا إلى هذا السفح الذي وصل إليه، وعيب أن نلجأ إلى تقليد بعض المدارس الغربية على فننا، عيب أن يلجأ بعض المنشدين وبعض القراء إلى هذا الطريق؛ فمصر هي التي أنجبت الشيخ أحمد ندا والشيخ محمد رفعت والشيخ علي محمود والشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ الشعشاعي والشيخ زاهر والشيخ عبد الباسط عبد الصمد.

وحبذا لو اهتمنا كثيرًا بمدارس تحفيظ القرآن الكريم؛ فهي المنبع الذي يمدنا بالقراء والمبتهلين؛ لأن هذه المدارس هي التي حلت محل الكتاتيب القديمة، التي كان لها أعظم الفضل في الحفاظ على استمرارية الفن العظيم، فن التلاوة والابتهالات.

وفي النهاية ينبغي ألا ننسى سببًا آخر في سقوط الفن وانهاره، هو انتشار هذه الشركات التي لا أصل لها ولا فصل، والتي تنتج أشرطة التسجيل، والتي انتشرت كالوباء في سيارات الأجرة، والعبد لله يرى مكافحة هذه التسجيلات والقبض على أصحاب هذه

الشركات، التي يمتلكها ويديرها عينات من البشر أغلبهم بلا صنعة، وليس لهم أدنى صلة بالذوق أو بالفن، والتي أساءت إلى شعب مصر وإلى تراثه المجيد وتاريخه العريق. وبعد ... أرجو مخلصاً أن يكون التوفيق قد حالقنا في عرض وجهة نظرنا، وأن يكون الصواب حليفنا فيما عرضنا عليكم. وأرجو ... إذا كنا قد أسأنا التعبير، أن يسامحنا الذين أسأنا إليهم والذين أحسنوا إليهم أيضاً، إذا نسينا أو أخطأنا؛ فلم يكن لنا هدف إلا التعبير عما نُحسه ونشعر به، ولم يكن لنا هدف إلا النهوض بهذا الفن والعودة به إلى عهوده الزاهرة، ولم نفعل سوى الاجتهاد، وفي ديننا الحنيف، للمجتهد المخطئ أجر وللمجتهد المحسن أجران ... نسأل الله أن نكون من أصحاب الأجرين، ونشكر الله إذا كنا من أصحاب الأجر الواحد!

## رسالة

يحيى عاصم

YAHYA ASSIM

ALVEN PALACE HOTEL

R. JACOB RICHLIN, 208

JOINVILLE – SC

BRAZIL

٧ أكتوبر ١٩٩٥م

الشيخ محمود السعدني

الويل لك ثم الويل لك، وعفا الله عنك؛ إذ كيف سولت لك نفسك الأمانة بالحسنى والجمال، أن تتجاهل — وأنت الخبير بشئون التلاوات والتالين وألحان السماء — قارئاً عملاقاً لا يضاهيه قارئ في حلاوة صوته، لا من قبل ولا من بعد، ذلك هو الشيخ الكامل، كامل يوسف البهتيمي.

كيف يجوز لذواعة وسميع مثلك أن تصدر منه هذه الفعلة؟ في حين أنك تحشر الشعشاعي والحصري بين العمالقة، وهما ليسا من العمالقة في شيء، إلا إذا كانت «العملقة» تعني ضخامة الجسم أو صوتاً خشناً، وهذا شيء وحلاوة الصوت ولذة الألحان شيء آخر. وإنقاذاً للموقف الذي وضعت نفسك فيه بتجاهلك الشيخ البهتيمي، ما عليك إلا أن تحدثنا في مقالٍ قادم عن شيخنا هذا، أصله ونشأته إلى أن وافته المنية في أحد مساجد القاهرة وهو قائم يُصلي ويتلو إلى جانب زميله العملاق الآخر محمد صديق المنشاوي.

فهل أنت فاعل ذلك؟

## الشيخ مصطفى إسماعيل والآخرون

إذا كان لكل من الشيوخ القراء: محمد رفعت والبهتيمي والمنشاوي وشعيشع وآخرين أسلوبه الخاص، فذلك الأسلوب إنما هو أسلوبٌ واحد لا غير، أسلوب جميل ولكنه أسلوبٌ واحد ووتيرةٌ واحدة.

أما مصطفى إسماعيل فقد كان مجموعةً كبيرة من الأساليب، وكان متمكناً من الألحان والأنغام إلى حد لم يُضاهه أحدٌ فيه. وكان يتلاعب في الألحان والأنغام كما تتلاعب أنت بالكلمات والجمل في كتاباتك الساحرة الساخرة، وكما كان يفعل أخٌ لك من قبل اسمه «برنارد شو».

وقد سألتُ أنا ذات يوم عملاً آخر في ميدان آخر ذي صلة وثقى بألحان السماء عن أحسن قارئ، فكان جوابه: مصطفى إسماعيل، وما فيش غيره. هذا ما قاله لي محمد عبد الوهاب مطرب الملوك والأمراء والصعاليك والغلابة ... في كل مكان.

أشيخٌ أم شيخان؟

على أن الشيخ مصطفى إسماعيل لم يكن شيخاً واحداً كسائر القراء بل كان شيخين اثنين.

أما مصطفى إسماعيل الشيخ الأول فهو الذي نستمع إلى تلاوته في الإذاعات خمس دقائق أحياناً، وثلاثين دقيقة أحياناً أخرى.

وهو في هذه التسجيلات المُذاعة لا يختلف عن القراء الباقين؛ فهو قارئ عادي، بل هو في هذا دون البهتيمي وشعيشع والمنشاوي، وهؤلاء جميعاً أجمل منه صوتاً.

أما الشيخ الثاني، القارئ العملاق، بل عملاق العمالقة فهو مصطفى إسماعيل في الحفلات الدينية التي تُقام في القصور والمساجد ... هناك يكون الإبداع. وهناك تغلو أصوات السامعين والسماعات إكباراً وإجلالاً وطرباً وخشوعاً وذهولاً، هناك في هذه الحفلات ينقل شيخنا مصطفى إسماعيل سامعيه من عالم إلى عالم.

هكذا كان مصطفى إسماعيل منذ «رمضانيات» قصر عابدين في دولة «فاروق» وظل كذلك في دولة عبد الناصر ثم في دولة السادات ... إلى أن قضى نحبه في دولة مبارك.

وكنْتُ ذات يوم أזור الشيخ مصطفى إسماعيل في شقته بالزمالك فسألتُه عن سر الفرق بين التسجيلات المُذاعة وبين الحفلات الكبرى؟ فكان جوابه في الحفلات الوقت

أطول، وفي الحفلات تجاوبُ بينه وبين جمهور السامعين، بل الجماهير الغفيرة من سامعين وسامعات ليس من المحيط إلى الخليج فحسب ... بل في كل بلد مسلم، إيران وتركيا والباكستان حتى إندونيسيا.

ومصطفى إسماعيل بالنسبة لمن عاصروه من القراء كان كبيرهم الذي علمهم السحر، سحر التلاوة والقراءة تجويدًا وترتيلًا.

وقد حاول الكثيرون أن يقلدوه ولكنهم فشلوا؛ لأن مصطفى إسماعيل كان في تلاوته — كما قلت أنت بحق — سهلًا ممتنعًا.

وحاولتُ مرة أن أعرف من الشيخ مصطفى عمن يعجبه من المطربين والمطربات فاكتمى بالقول: واحدة وواحد.

أما الواحدة فهي بالطبع «أم كلثوم» وأما الواحد فهو «صالح عبد الحي». ويبدو لي ولكثير من عشاق التلاوة أن الشيخ مصطفى إسماعيل قد تأثر إلى حد كبير في أسلوب تلاوته بـ «صالح عبد الحي» صاحب «المولات» و«الليالي» والقصائد الشهيرة ... التي سار على أسلوبها الكثيرون حتى يومنا هذا.

### محمود السعدني والمرأة

ليس في كتاباتك يا شيخنا يا محمود ما يشير أو يُشم منه رائحة عدائك للمرأة ... ولكنك مع ذلك، وسامحك الله، تجاهلت السيدة الأولى، بل السيدة الوحيدة التي سجلت بصوتها الجميل آيات من سورة محمد، فكانت أول قارئة مصرية، والقارئة الوحيدة التي عرفتها أسطوانات تلك الأيام، وكان ذلك في أوائل القرن الحالي.

ألم تسمع بها يا أستاذ محمود؟ وكيف لمثلك ألا يسمع بالشيخة «سكينة حسن»، فلماذا إذن لم تتطرق إليها في أحاديثك عن القراء والتالين ... لماذا؟

تجاهلتُ أجمل صوتٍ بين القراء الذين قضوا نحبهم والذين هم ينتظرون، ذلك هو صوتُ البيهيمي.

ثم تجاهلتُ القارئة الأولى والقارئة الوحيدة، الشيخة «سكينة حسن»، فهل لك الآن أن تحدثنا عنها؟ كما ستحدثنا عن كامل يوسف البيهيمي، وإن اتسع لك المقام والمقال فحدثنا عن «صالح عبد الحي» كذلك.

وأخيرًا، سلامٌ عليك يوم وُلدتَ ويوم تموت بعد عمرٍ مديد ... ويوم تُبعث حياً، ونعوذ بالله من شر ذلك اليوم المستطير الذي ستعود فيه حياً، كتابك بشمالك وقلمك الساخر بيمينك!

أَلحان السماء

أوليسَ الحياةُ كلها سخريةٌ في سخريةٍ؟ ألسنا جميعًا يسخر بعضنا من بعض؟  
وأخيرًا مرةً أخرى، رسالتي هذه تحيةٌ لك.  
أستردُّ على تحيتي هذه بأحسنَ منها أو مثلها؟ أو على الأقلِّ بأقلِّ منها؟

يحيى عاصم  
كاتب سابق  
وقارئ لاحق

وتلك الأيامُ نُداولها بين الناس وبين الكُتاب والقُراء والمقرئين.

يحيى عاصم  
YAHYA ASSIM  
ALVEN PALACE HOTEL  
R. JACOB RICHLIN, 208  
JOINVILLE – SC  
BRAZIL



